ا ۰ ت ۰

باقۂ

باقۂ روایات

892.7308;A86A

أ. ت.

باقة روايات.

DEC 13 X28
C 82

892.7308
A86bA

DEC 27 '61

SEP 62

JUL 1973

892.7308
A86bA

باقة روايات

بقلم ا. ت.

نفس عبقرية
الاسيرة الصغيرة
العقاقيري العالم
المرأة الثرثارة
الذئب الازرق
اشارة الصليب
ما ثقل تبنة
كأس الماء
سرداب الدير
لكل امرئ ما نوى
دعاء الام
النوط
الفقير الرابع
حلم ملاك صغير

Cath. Fic. 53

بيروت
المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين
١٩٢٤

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

كلمة الى المطالع الكريم

ايها المطالع العزيز

هذه وريقات متناثرة ضممتها بعضها الى بعض كما تضمّ الازهار وتجعل باقة مربوطة ببعض خيوط. ومن ثمّ دعوتها «باقة روايات». وقد جنيتها من رياض الاداب كما تجنى الزهور من بعض الجنان. وبالغت في اختيارها وتنسيق عباراتها. وهاءنذا اقدمها لك ايها القارئ العزيز راجياً ان تروق في عينيك كما ارجو ايضاً ان تحبّب اليك الفضيلة وتبغّض اليك الرذيلة وتحثك على المسير في سبيل الصلاح وتفكهك بضع سويعات. فان بلغت ما اتمناه فحسبي ما اناله من الاجر في الاخرة. والّا فقل: «متطفل حسن النية غفر لهُ الله ما اتى من السيئات». وهو حسبنا ونعم الوكيل ا. ت.

نفس عبقرية

نفس عبقرية

توارت الشمس بالحجاب من وراء نِيس او كادت وقد تغشاها الضباب فاكمد زرقة البحر. وحينئذٍ ظهرت شابة على طريق ڤيلفرانش تسير سيرًا حثيثاً خوفاً من ان يدركها الظلام ببرده. وكانت قينتها تقفو خطاها. ولم تكن الفتاة تتمالك نفسها من إن تسعل مرة بعد اخرى وهي تسير مطأطئة رأسها وقد سترت عنقها وبعض محياها بتلبيب ردائها لا تنظر يمنة ولا يسرة الى ما حولها من المناظر الطبيعية الجميلة ولا الى البحر المتوسط بل جل اهتمامها كان في امتثال اوامر طبيبها الذي حظر عليها البقاء خارجاً بعد غياب الشمس

غير انها توقفت فجأة اذ طرق مسمعها زفير ولد ينتحب انتحاب بائس. وحين التفتت وقع بصرها على صبي صغير زمّار متردٍّ بأسمال بالية وجالس الى نصب على الطريق

فقالت لقينتها : الا ترين هوذا الموسيقي الصغير الذي يعزف على مزماره كل يوم صباحاً امام نافذتي. فلماذا يبكي يا ترى؟

— هلمي يا سيدتي فلنعجل. فان انت تنازلتِ وكلمته يكثر من العزف كل يوم على آلته الممقوتة التي تخدش الآذان بصوتها القوي النافر

— ان سمعك شديد التأثر يا مريم . أفلا ينبغي لهـذا الصبي ان يحصّل معاشه كيفما تيسر له ذلك ؟

— يا حبذا لو كان ما يحصله من الدراهم ينفقه على نفسه

— ان لم ينفقه على نفسه فهو لامه التي تكسوه وتقوته

— وهل يعد مكسواً من كان مثله مرتدياً هذه الاخلاق البالية القذرة ولا اخاله يأكل اكلاً طيباً وهو ضعيف مهزول

لكن الفتاة لم تصغي الا الى داعي المحبة والشهامة لان الولـد لم يفتأ يئن ويشكو . ولم يكن ذلك المسكين قد تجاوز العاشرة من سنه وهو ذابل الوجه شاحب اللون اصداه وعلى رأسه قبعة قش يا لها من قبعة قد اكل الدهر عليها وشرب وزادتها القذارة ألواناً الى لونها الاصلي ومن تحتها ذوائب شعر حالـك السواد تتدلى عـلى زيق دراعته المخملية . وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع تبرقان بنور الذكاء

ولما شاهد الفتاة مقبلة عليه ظنها تريد ان تسمع العزف فانقطع عن الزفير وعمد الى زمارته فوقف وسلم . فقالت له هذه : حسبك يا عزيزي لا تعزف ولكن قل لي ما يبكيك ؟

— لست اعلم يا سيدتي

— لست تعلم لماذا تبكي ؟

فلم يجبها بشيء . وبقي مندهلاً مما يراه كمن دهش بجمال بعض صور السيدة عليها السلام

ولما خاطبته تلك الآنسة حسرت عن وجهها . وكان ضوء الجونة يلوّن ماء البحر بالوان قوس قزح فبيـن في عيني تلـك الآنسة

انعكاس نور لا نهاية له فظهرت جميلة بجمال جذاب يفتن الاطفال المشغولي البال . فشجعه منظرها على التكلم فقال :

ألست انت يا سيدتي تلك الآنسة التي تعطيني بضع صلديات كل يوم

— بلى يا عزيزي

— لم تكوني هذا النهار كعادتك عند النافذة

— لا . وهاءنذه راجعة من سان جان

— ولهذا السبب كان يومي هـذا من أشأم الايام لان مرآك كل يوم صباحاً يجلب لي الخير

— أحقاً ما تقول ؟ فانا اذاً سعيدة . وعليه انت تبكي الان لان ما حصلته اليوم قليل

— قليل ؟ . . . لا بل لم احصل شيئاً . اذ لم يعطني احدٌ فلساً واني اخاف من رجوعي صفر اليدين

— ولماذا ؟ فهل تخاف سوءا من والديك ؟

— ان والديّ في رومة . آجروني رجلًا يسيء معاملتي ويضربني ان لم احضر كل يوم المفروضَ علي

— وكم المفروض عليك ؟

— ثلاثة فرنكات يامولاتي

ففتحت هذه كيسها وبحثت فيه فلم تجد الا قطعة ذهبية بعشرة فرنكات فترددت قليلًا ثم اعطتـه اياها مدفوعة بعامل الشفقـة والمحبة القلبية قائلة :

اليك يا عزيزي . هذا ما يكفيك ثلاثة ايام فيمكنك في خلالها ان تلعب على شاطئ البحر كما يروق لك بدلاً من ان ترقص وتعزف مضطراً امام القهاوي . ولا تبك فيما بعد . الوداع يا عزيزي

— شكراً لك يا سيدتي . بحفظ الله

وتأمل ملياً في تلك القطعة الذهبية فلم يكن يرى عليها الا صورة المحسنة اليه ووجهها العذب الجميل الذي غاب عنه

اصاب عشرة فرنكات دفعة واحدة . تلك ثروة لم يكن ليحلم بها . وماذا يفعل بهذه العشرة الفرنكات ؟ . . . فعوضاً عن ان يسير تواً الى ڤيلفرانش محل سيده عاد الى نيس وأسرع الى السوق فاشترى مدية من الفولاذ ذات أنصل متعددة ونصاب متين يسهل الشغل بها على يد صغيرة كيده . دفع ثمن المدية سبعة فرنكات فاحتفظ بها وجعلها في جيبه . ثم ابقى ثلاثة فرنكات لمعلمه وسار منشرح الصدر قاصداً مقره

قد تمكن بواسطة تلك الانسة الجميلة ان يحقق آماله فينحت ما شاء . وآماله كانت تتطاول منذ زمان الى ان ينقش على الخشب ما يرسمه من صور بشرية واشكال حيوانية على قطع السنديان او الزيتون . ولم تتحقق امانيه حتى تلك الساعة . نعم انه قد تمكن من نقش بعض اشكال غير انها لم تكن حسنة اذ لم يكن له من الادوات الا مبراة صغيرة مفلولة . اما الان فقد اتسع امامه مجال العمل بفضل هذه الآنسة وحدثته نفسه انه سيفوق مهرة النحاتين . . .

كان في زمانه الماضي وقبل ان يسلمه ابوه الى هذا المعلم الظلوم يرعى خرفانه في مروج رومة وهو يتمرن على نحت قطع الخشب . فكان يصور خرفانه وكلبه او بعض زملائه الرعاة فيلبس قطعة الخشب بعض صفات الصور ان لم تقل كلها . فيصور الشاة تارة ترعى ورأسها في الارض وطوراً تسير مستقيمة العنق او تنظر الى العلو ويصور كلبه راكضاً يلهث او نائماً على شكل نصف دائرة او قائماً على رجليه . واجتمع عنده من هذه المنحوتات شيء كثير فوزعه على زملائه الرعاة . وكان الاغنياء في بعض الاحيان يستحسنون بعض هذه الاشكال فيأخذونها ويعطونه بضعة صلديات

مضى على مجيئه الى فليفرانش ستة اشهر ومعلمه يضطره الى الرقص والغناء والعزف امام القهاوي ولم تسنح له الفرصة يوماً واحداً بان يتلهى بما تصبو اليه نفسه . هذا فضلاً عن انه لم يكن لديه اداة جيدة صالحة للعمل . ولما حصل على المدية عاد اليه ولوعه بالنقش وتملكه . فصار يرقص دعباً ويغني بخفة ويعزف بشدة اعظم فتنهال عليه الدراهم ومتى جمع المطلوب منه يذهب ويجلس على شاطئ البحر عند مصب نهر هناك في ظل بعض الاشجار آمناً حر الشمس فيخرج مديته ويأخذ ينحت قطع خشب الارز والليمون او الزيتون

واذا ذاك تغيب عن ذاكرته رومة وابواه اللذان لا يهتمان به والمعلم القاسي واتعابه وحالته الفقرية مهتماً بالنحاتة فقط ومفكراً بالمحسنة اليه الجميلة الصالحة

ولقد تجرأ مرة على نقش صورتها لكنه لم يجدها مشابهة لها . ولما تقرر لديه عجزه غضب وطرحها في البحر

ولم يكن يسهو عن المرور كل يوم امام نافذة الشابة المحسنة فيعزف بزماره اكراماً لها فتطل عليه فيحييها فتطرح له صلدياً . لكنها لاحظت منه انه كان يبتعد اذ ذاك كمستاء . ففهمت عزة نفسه وما الذي يدفعه الى زيارتها صباحاً فاجترأت عند ذلك بان تهش بوجهه

وكانت تسكن في الطبقة السفلى من مسكنها وامام ذلك البيت فناء صغير يحيط به شجيرات خضراء تظلل الطبقة السفلى فتنشر عليه غشاء نسج من الحزن والانقباض

وحدث ان جيوفني الصغير دخل مراراً الى ذلك الفناء ليشاهد الآنسة عن قرب . لانها لم تعد تخرج للنزهة فلاحظ انها شاحبة اللون اكثر مما كانت عليه

وكان بعد الغداء متى شرع في النقش يفكر فيها فيقول في نفسه لا شك انها غريبة عن نيس وقد جاءت اليها قصد المداراة والاعتناء بصحتها وانها ستبارحها في منتهى الشتاء . فيشعر بحزن لدى هذا الفكر ظناً منه انه لن يصبر على فراقها

وبلغ منه الحزن مرة مبلغه حتى انه سها عن النقش كعادته . فاخذ يسير على غير هدى مشتت البال ومزماره تحت ابطه ويداه في جيبيه يتردد بلا عمل على ضفة النهر . وهو يفكر انه لم يرَ منذ خمسة عشر يوماً النافذة التي تطل منها محسنته مفتوحة مع انه كان يعزف عزفاً قوياً

وفيما هو يتأمل في ذلك اخرج من جيبه شخصاً يمثل العذراء وقد رأى صورتها في احدى الكنائس وشرع ينقش . فوقف وراءه رجل عليه امارات الغنى ينظر اليه باشاً وقال له :

— بكم تبيع ما في يدك يا بني

فاجاب الولد وقد صبغت وجهه حمرة الخجل : « ليس هذا للبيع يا سيدي . ولكن متى برعت في العمل فاربما افعل ذلك »

— ومن علمك النقش

— تعلمت على نفسي يا سيدي

— اني اعطيك بما تعمله عشرة فرنكات . أتقبل ؟

— نعم يا سيدي

— ولكن عليك ان تتممه اولاً

— لا شك في ذلك

— ومتى انتهيت من عملك فاحضره الي الى هـذا المنزل الذي امامنا واليك اسمي . ومتى احضرته انقدك العشرة الفرنكات

ثم دفع اليه بطاقة كتب عليها اسمه . فقال له الولد حينئذٍ بفرح لا مزيد عليه : شكراً لك يا سيدي ساتمم عملي هـذا المساء واحضره اليك صباح غد

قد ربح عشرة فرنكات بنجابته الصبيانيـة فماذا يكون من أمره متى كبر واتقن هذا الفن ؟ كانت نفس ذلـك الصغير ملعباً للاحلام والاوهام وخصوصاً لمعرفة الجميل لتلك الفتـاة الجميلة التي سهلت امامه السبل بمشترى مدية مسحورة تأتي بمثل هذه الاشكال

الجميلة محفورة على الخشب

*

كان الشفق صاعدًا من الفرضة والماء ملوناً باون البنفسج يتموج مضطرباً اضطراباً خفيفاً بنور الشمس الضعيفة واذ ذاك انهى جيوفني عمله متمماً التمثال . جنح النهار وفات الوقت المناسب لكي يؤديه لطالبه ذلك المساء لانه كان مضطرًا ان ينـام في ڤيلفرانش . هذا فضلًا عن انه كان يريد ان يدقق في اتمامه صباحاً عند انبثاق الفجر لانه يقوم باكرًا فيضرم النار ويسخن الماء فيجلس الى النار متدفئاً وينتظر قيام سيده . وكانت له ساعة من الزمن يذوق فيها لذة الهدوء والسكينة . فسار قاصـدًا مقره لكن قوة لا تقهر مالت بـه عن طريقه ودفعته الى المرور امام بيت المحسنة اليه لانه كان قـد شعر بقلق داخلي

لم تزل النافذة موصـدة ولا عجب في ذلـك فان المرضى لا يعرضون بانفسهم لبرد المساء . فدخل الى الفناء الصغير وقد استولى عليه الاضطراب كانه يفعل ما يلام عليه . فرأى نورًا ضئيـلًا من وراء الستائر . فقال في نفسه : ها هي ذه لم تزل هنـا . لا بد لي من ان انبهها . ثم عزف قليلًا بمزماره

فظهر حالاً على جناح المنزل صاحبه ورفع ذراعه يتهدده . فولّى الطفل فارًا مذعورًا لا يلوي على عنان . لكنه تأثر جـدًا وهم بالبكاء . اذ قد مضى عليه زمن كانه دهر لم ير في خلاله الآنسة

ثم عاد خفية وقائده حب الاولاد العنيد وانساب في الظـلام

مزدلفاً الى النافذة فنظر الى الداخل من وراء الواح الزجاج فرآها مضطجعة على سريرها شاحبة اللون صفراء جداً مغمضة العينين كأنها نائمة . فعرفها . لكنه ارتاع لدى مرآها على هذه الصورة

ارتاع منها وهي نائمة . وماذا يعني هذا النوم ؟ ولِمَ هذا الصليب الذي بين يديها ؟ ولماذا هاتان الشمعتان ؟ وماذا تفعل هذه الراهبة الجاثية بالقرب منها الى جانب السرير ؟

ففهم الولد كل شيء . فافلت مرتعباً وسار حثيثاً الى ان وجد السيد طالب التمثال على ضفة النهر فقال له :

— قد أتممت عملي يا سيدي واحضرت اليك التمثال

— احسنت يا بني . سوف تكون نقاشاً ماهراً . اليك ما وعدتك به

فاخذ جيوفني العشرة الفرنكات وذهب الى الخارج ولم يشكر . وسار باكياً لا تنشف له عبرة ولا يهدأ له بال حتى وجد بائعة زهور فاشترى منها طاقات عديدة بقدر ما امكنه ان يحمل من شقائق النعمان والبنفسج والورد والقرنفل وغيرها وطرح لبائعة الزهور العشرة الفرنكات وعاد الى النافذة المغلقة واخذ ينثر تلك الزهور في الفناء وجثا بينها راكعاً في الليل الدامس وقائلاً :

اليك يا مولاتي ما اعطيتني من المال فاني ارده اليك وقد فارقتني . الوداع يا مولاتي الوداع !

ثم سقط مغشياً عليه بين زهور الورد والبنفسج والقرنفل

قال الراوي : ذلك الولد لا يزال عائشاً حتى اليوم . وهو يعدّ من امهر نقاشي بلاده وأبعدهم صيتاً

الاسيرة الصغيرة

الاسيرة الصغيرة

زيارة الوداع

« يا للفرح : قد عزم البروسيان على الرحيل »

هذا ما كان يردده جوليان الصغير منذ هنيهة وقد ثاب اليه نشاط الاحداث الذي كان قد فقده مدة اشهر استولت في خلالها الرعبة على القلوب وانتشرت على تلك الناحية منذ احتلها الالمان. ولذلك كان فرحاً جذلاً يردّد بلا فتور :

« عزم البروسيان على الرحيل وهذه المرة لا مردّ لهم . فعلى الطائر المشؤوم الى حيث ألقت رحلها ام قشعم »

اما السيدة مورين فكانت مهتمة باعداد الغداء . فأجابته بصوت المغضب دون ان تنظر اليه :

« هذه المرة العاشرة تبشرنا برحيل الالمان وهم لا يزالون هنا . نعم انهم يذهبون احياناً بلا طبل ولا زمر ولكن يعقبهم غيرهم فهم اشبه بالنخيل معما بولغ في استئصاله يعود فينبت »

— « اما هذه المرّة فهم راحلون حقيقة . ها نذا آتٍ من القرية وقد شاهدت كل شي معدًّا للرحيل . ثم اردف كلامه بقوله همساً :

« يظهر ان الفرنسيين قد نالوا انتصاراً باهراً . الم تسمعي كل نهار امس قصيف المدافع . وكنا نسمعه من القرية كما لو كنا بجانبه .

وشاهدت اليوم الالمان حنقين مغضبين يدخلون البيوت ويأخذون منها جميع ما تصل اليه ايديهم ويجعلونه في العجلات الضخمة »

فانتصبت السيدة مورين وقالت بعزم :

« لعل نفسهم تسوّل لهم المجيء الى هنا . ولكن عبثاً يحاولون الحصول على شيء . فقد اغتصبوا منا جميع ما لدينا ولم يبقَ عندنا الا بقية لا خير فيها »

وكانت السيدة مورين قد اتت بيتها واستثمرت المزدرعات التي بين ايديها بمساعدة ولدها قبل الحرب بعزم وخبرة نادري المثال . اما الان فقد هبّت فوق تلك المزدرعات عواصف الحرب فاصبحت قاعاً صفصفاً وتأججت في زوايا بيتها نيران المدافع فاصبح دماراً

ذهب ولدها الى ساحة الوغى ليتمم واجباته ويقاتل اعداء وطنه ببسالة نادرة وقلب وطني يدافع عن ماله وحقوله التي اجتاحها الالمان فغدت مزرعته « سنت بَرب » خراباً لا ينبت فيها الا الشوك

اما السيدة مورين فكانت حصيفة الرأي متوقدة الذكاء قد قاومت بكل ما لديها من القوى تلك العاصفة الشديدة والبلايا العديدة التي المّت ببيتها واملاكها وفضّلت البقاء في بيتها المتهدم وحقولها الجرداء على المهاجرة

وكان يقيم معها احد ابناء اخوتها المدعو جوليان وهو حدث نشيط ذكيّ غير انه أعرج . ولم يكن عرجه ليمنعه عن اداء المنافع العديدة والقيام بالمهمات العسرة او ليثبط عزمه عن الجري في الغابات ليجني الكرز والزعرور وما اشبه

بلغ هـذا الحدث العـاشرة من سنه وقد شب على حب عمته فاصبح لهـا رفيقاً ودوداً لا يطيق فراقـاً عنها . وكأن الحرب قد ضغطت على قواه وخفضت كثـيراً من غلوائه فبات رصيناً هادئاً كالمتقدمين في السن . لكن هيجان الحداثة كان يتغلب على رصانته ابان الفرح الشديد فيطلق لحمياه العنان . وايّ فرح لديه اعظم من رحيل الاعداء عن بلاده ؟

وعليه فلا غرابة في ان نراه يرمي كُمّته الى الفضاء قائلاً : «ان لم نفرح ونسرّ يوم ارتحال البروسيان عن بلادنا فلن نفرح أبداً»

وكانت تقيم مع السيدة مورين ابنة يتيمة مثال الغيرة والجـدّ تدعى مرتا اتخذتها تلك السيدة كخادمة لتساعدها عـلى الاعمـال الخدمية فأتت بمنافع جليلة وخدم جمة . ولم تكن هذه الابنة قد بلغت الخامسة عشرة من سنها لكنها كانت نشيطة وقويـة وماهرة في سائر المهمات المتعلقة بالبيت والحقل . ولمـا لم يترك الالمـان مواشي تصلح للحراثة مذ استولوا على تلك الناحية انحصرت اعمال مرتا فيما بقي من انقاض البيت المتهدم . ولم يكن الالمان يترددون الى تلك المزرعة لانه لم يكن فيها شيء ينتفعون به من مأكل ومشرب ولا يصلح بناؤها المتهدم للاقامة . اما السيدة مورين فقد اختارت لسكناها سرباً متسعاً تحت تلك البناية الفخمة التي اصبحت خربة وجعلت في نفق الى جانب ذلك السرب مـا امكنها ان تنقذه من مخالب الدمار . بضعة اكياس «بطاطا» وقليلاً من اللحم المقـدد وشراب التفاح

ولم تكن تلك المرأة قد فقدت شيئاً من حماستها ونشاطها مع انها شاهدت بام عينها خراب مسكنها والعبث باملاكها وقد مضى عليها زمان طويل ولم يبلغها خبر عن ولدها المتجند للدفاع عن الوطن وليست تعلم محل اقامته . وهي مع ذلك لا تتأسف على البقاء في مقامها المخوف بالمخاطر لان من الواجب عليها ان تكون حيث هي املاكها وان يكن الاعداء قد عاثوا فيها فيعطى لها على الاقل يوم اندحار البرابرة ان تكون في مقدمة من يرفع العلم على شرفاته اذ ذاك او يقدم طاقة زهور للجنود الظافرين احتفالاً بعيد الخلاص . هذا فضلاً عن انها اقسمت لولدها انها لن تفارق البيت والمزرعة وان يكن قد حاق بهما الخراب فهما يخصانها

*

كان جوليان قد بشر اكثر من مرة بانسحاب الالمان ولم يتم ذلك الحادث المشتهى فعلاً غير ان فرح الفتى ولهجته الصادقة والتفاصيل الصريحة والبراهين القاطعة التي جاء بها هذه المرة لم تترك مجالاً للريب في ذهن السيدة مورين فنادت للحال : « مرتا . مرتا »

فهرعت الفتاة لدى سماع اسمها وقد كانت مهتمة ببعض الشؤون الخدمية وهي شابة يافعة ناصعة البياض شديدة العضلات قد تعودت يداها الاشغال الشاقة منذ الصغر ، ذات عينين زرقاوين براقتين ينبعث منهما نور السذاجة ودماثة الاخلاق . فقالت لها سيدتها :

« اذهبي يا بنية الى النفق واتينا بقليل من اللحم المقدد

وزجاجة من نبيذ التفاح»

— قارب اللحم ان ينفذ والنبيذ ان يفرغ فلم يبق منهما شيء. يذكر

— لا بأس ايتي بما تيسر فان اليوم عيد. قد سمع جوليان خبرًا مسرًا وهو ان البروسيان عازمون على الرحيل

— ان كان البروسيان راحلين فلا مانع

وبعد ذلك بخمس دقائق جلست السيدة مورين كعادتها وجوليان ومرتا حولها لتناول الطعام على خوان قد تكسر فاكل الجميع ذلك النهار بقابلية من الطعام المعدّ مع شيء من اللحم المقدد والشحم. غير ان ما يحف بهم من المناظر ينقبض له الفؤاد حزناً: لم يكن النور يدخل الى ذلك السرب الا من كوّتين صغيرتين جعلتا في احدى الزوايا. وليس فيه سوى بعض ادوات الطبخ وثلاث صور تمكنت ربة البيت من انقاذها من البيت المتهدم وبعض البسط معلقة على الحائط. وكان قصيف المدفع المتتابع يزيد هذه الزينة حزناً. لكنه لم يكن يسمع منذ اسبوع الا نادراً.

وفيما هم كذلك طرق آذان جوليان ومرتا صوت فانتبها له ولم يكن ما سمعاه بقصيف المدافع ولكن صوت وقع اقدام ثقيلة ودوي بنادق واوامر عسكرية صادرة بلغة غريبة ولهجة فظة. فهتف الولدان معاً قائلين: «ها هم اولاء البروسيان»

فاجابت السيدة مورين بعدم اكتراث: «انهم جاؤونا مودعين. لا بأس في ان يدخلوا. لم يبق شيء يخاف عليه من جشعهم»

لم يخطىء ظن الولدين . كان اولئك هم البروسيان وقد اخذوا يهتمون باتمام ما شرعوا به في تلك القرية وما حواليها . عزموا على الرحيل ولكن قبل اندحارهم وهم يدعون ذلك «خطة حربية» قرروا ان يتمموا خطة اخرى تقوم بنهب ما بقي في القرى وتدمير ما يمكن الانتفاع به لحيّ بعدهم

ولم يعتم الجنود الذين ارسلوا الى مزرعة «سنت برب» ان دخلوا اليها او بالاحرى الى انقاضها وتجاوزوها الى السرب حيث كانت صاحبته تتناول الطعام مع الولدين . وكان الضابط المؤمّر على الجند طويل القامة نحيل الجسم عبوس الوجه حليقه يدّعي الادب وهو غريب عنه ويتكلم الفرنسية بجلاء وتدقيق . فقال لربة البيت «قد اتيت ايتها السيدة لاتمام بعض المهمات»

فاجابت هذه وفي صوتها شيء من التهكم :

«ان كنت أتيت لتسلبنا ما لدينا فقد كان الاولى بك الا تتعب نفسك فهذا جميع ما تركتم لنا» . ثم اشارت الى الصور القديمة والاسمال البالية وادوات الطبخ

لكن هذا لم يجبها بشيء بل تمعن فيما حواليه وأشار الى جنوده ان يأخذوا ادوات الطبخ

فاحتجت السيدة مورين على عمله هذا قائلة :

«كيف يتيسر لي ان اطبخ . لو كانت هذه الادوات من نحاس لهان الامر ولكنها من حديد . . . .»

فقاطعها الضابط بقوله : «انها من معدن يمكن للفرنسيين ان

ينتفعوا به فنحن احق به منهم » . وأشار ثانية الى مرؤوسيه ان يفعلوا

وفي تلك الدقيقة لمحت السيدة مورين من كوة السرب جنديين أخذا في نشر شجرة كرز وهي الشجرة الوحيدة التي بقيت من اشجار روضتها الغناء . فلم تملك نفسها من الصياح بذلك الضابط قائلة : « انهما ينشران هذه الشجرة ولماذا ؟ وما الفائدة من عملهما هذا ؟ »

فقال الضابط : « أمرنا ان نستأصل كل ما يمكن للعدوّ ان يستفيد به عاجلًا او آجلًا » . وبعد ان تأمل في جوليان مليًّا وامره ان يسير أمامه مرّات وتأكد انه سقيم حقيقة لا احتيالًا قال بلهجة المحتقر : « لا حاجة لنا الى الاعلّاء » . ولما وقع نظره على مرتا وهي ناظرة الى فعل الجنديين سأل ربة البيت قائلًا :

من هذه الابنة ؟

— هي خادمتي لكنني تبنيتها فهي بمنزلة ولدي

— كم عمرها ؟

— لم تبلغ الخامسة عشرة بعد

— يظهر لي انها قوية وقادرة على العمل وانا على يقين انها ستؤدي لنا خدماً جزيلة . ثم اومأ الى جنديين فتقدما من مرتا

فصاحت به السيدة مورين وقد كادت تتميز من الغيظ : « لعلك تريد ان تستأسرها يا هذا ؟ ولكن كيف يجوز لك ذلك وقد سبقت فقلت لك انها كولدي . لا اخالك عازماً على ان

تفصلها عني

لكن ذلك الضابط لم يجر جواباً وبعد ان نظر الى ساعته قال بصوت السكينة والهدوّ :

— من مقتضيات الحرب ان تنتفع الامة بكل ما لديها من القوى القادرة على العمل . وما ستقوم به هذه الابنة من الاعمال يزيد قوتنا بقدر ما يضعف قوة الفرنسيين ولا يطرقن بالك اننا سنسي . معاملتها فهي ستكون في خدمتنا

ثم وجه الكلام الى السيدة مورين فقال : لك عشر دقائق لاغير واذ قال هذا القى الى جنوده بعض اوامر وهو خارج معهم من السرب

اما السيدة مورين فامتقع لونها اولاً ثم ثار ثائر غضبها فهرعت الى زجاجة النبيذ وهمت بان تشج بها راس ذلك الوحش البربريّ غير ان مرتا فهمت ما يجول بخاطرها من العواطف فامسكتها بذراعها قائلة بصوت منخفض : اياك ان تفعلي . لا تجزعي عليّ اني سأتوفق ان شاء الله الى النجاة من هذا الخطر

ثم همست باذنها :

لعلك ان اثرت غضبهم تلجئينهم الى الاثنار فيجلونا اجلاء

ولما سمعت ربة البيت هذا الكلام ارسلت يديها وطأطأت رأسها وجادت عيناها بالدموع فاجابت :

— أصبتِ يا ابنيّة . يجب علينا ان نتألم ونئن تحت نير هؤلاء البرابرة . وليس لنا ان نشكو . وبهذه كلها تقوم شجاعتنا نحن

النساء . وما ذلك وأيم الحق بالامر السهل علينا . فعسى ان نرى عن قريب منتهى هذا الشقاء . ها انني آخذة في اعداد امتعتك وما تحتاجين اليه في سفرك هذا

وحينئذٍ ثاب الى السيدة مورين بعض نشاطها فانتزعت من الحائط خير جلباب وجدته . وجعلت في علبة ما بقي من اللحم المقدد . واضافت الى ذلك ما وصلت اليه يدها في ذلك السرب الحقير من مثل ابرة وخيط وقليل من الثياب وصورة البيت مع صورة السيدة مورين وولدها وجوليان ومرتا . ولما تأكدت انها بمأمن من عيون الرقباء الانجاس اخرجت من جيبها الداخلي ثلاث قطع ذهبية ودفعتها الى مرتا قائلة :

ان الذهب جزيل الفوائد في كل مكان وزمان فاليك هذه الثلاث الليرات فانها تنفعك أنى كنتِ ولا ترفضيها فانك تحزنيني بذلك

فشرعت مرتا بالبكاء . وقد كانت صابرة منذ هنيهات . ولم تعتم ان رفعت رأسها قائلة :

لا اريد ان يفرح البروسيان ان رأوني باكية

ثم عانقت السيدة مورين وجوليان . فقال لها هذا بعزم لا يقبل التحول :

اريد ان ارافقك الى المحل المدعو « صليب الطريق » فهذا مسموح به للذين يريدون ان يرافقوا الاسرى . سمعت ذلك في القرية

قال هذا وقد كادت العبرات تخنقه لولا تجمله . فشفقت عليه الام مورين وقالت له بلطف :

احسنت يا عزيزي بهذا الاقتراح . رافق مرتا الى صليب الطريق ثم ارجع حالاً

ولما انقضت العشر الدقائق كانت مرتا مستعدة للمسير وقد جفت مآقيها ورفعت رأسها غير وجلة . فبرحت السرب وخرائب مزرعة «سنت برب» التي قضت فيها ايلماً احلى من نيل المنى . سارت وهي تغالب الحزن لكيلا يظهر على محياها شيء من آثاره فيشمت بها الاعداء . ولم تسر طويلاً حتى التقت ببعض الفتيات والنساء يحيط بهن جنود الالمان لاجلائهنَّ عن وطنهن وارسالهن اسيرات الى المانية للشغل الاجباري

فاختلط جوليان باهل اولئك الاسيرات وسار الى المكان المأذون بالوصول اليه وكان يبحث في ذاكرته عن عبارات رقيقة لطيفة ليعزي بها تلك الخادمة الباسلة التي شاركها غالباً في مشاق الاشغال وشاطرها افراحها وليخفف عنها وطأة الفراق

على طريق المنفى

كان المنفيون يسيرون على الطريق التي تخرج من القرية بتؤدة يحيط بهم جنود البروسيان وقد حشوا بنادقهم وجرّدوا سيوفهم . وكان جوليان يسير الهوينا عارجاً ويغالب حزنه غير بعيد عن مرتا . اما هذه فقد تغلبت على حزنها بحيث انها كانت تبتسم له

مرة بعد اخرى لكي تزيل بعض ما علق بقلبه من الجزع . وعند خروجهم من القرية جمعهم الضابط الذي جاء الى مزرعة «سنت برب» وهو لم يزل كما عهدناه مدققاً في افعاله غير متأثر مما يرى . وذكرهم بلهجة الآمر انهم قد اصبحوا خاضعين للشرائع الحربية وفي خدمة المانية وان من يحاول منهم الفرار يعدم

لكن مرتا لم تعر قوله اذناً صاغية بل ظلت تخاطب جوليان بصوت منخفض واكدت له انه سيراها عن قريب . ثم الحت عليه في الطلب قائلة : عدني انك ستبقى مدة يومين قريباً من عين السوسن

فنظر اليها جوليان قلقاً وهو يسأل نفسه : هل في نيتها الفرار حتى بعد ما سمعت تهديدات الضابط الالماني ؟ ان فعلها هذا ضرب من الجنون . اذ ان المنفيين لا يحيط بهم جنود شاكو السلاح فقط بل يسير في رفقتهم فرسان مستعدون لان يطلقوا لاحصنتهم الاعنة سائرين في اثر من سوّلت له نفسه الفرار . لكن مرتا حددت به بصرها المنبعث منه حزم نادر المثال ومشيئة صادقة وقالت له ثانية :

لا تنسَ ان تأتي مدة يومين الى عين السوسن بجانب شباك الرهبان

وكانت عين السوسن هذه على بعد ميل من مزرعة «سنت برب» وهناك قضى جوليان ومرتا ايام حداثتهما لاعبين ومجدين في صيد الخراطيط وجمع الجرجير

قد اشترى آل مورين الارض الواقعة بالقرب من تلك العين

المدعوة شباك الرهبان لانها كانت واقعة جزءا من دهاليز قديم مرتج بهذا الشباك وفيه كان المزارع قد شرع في انشاء مكمأة واجتمع فيه لديه ادوات كثيرة قديمة وبراميل فارغة . وما اشد ما كان فرح جوليان ومرتا عند ذهابهما الى شباك الرهبان لان التنزه كان شائقاً جداً في ذلك المكان ولان ذلك الدهليز المظلم وعلى بابه الشباك الحديدي قفل ضخم للغاية يخف به شيء من الغوامض مما يجب الصغار الوقوف عليها

بلغ الاسرى منعطف الطريق فسُمع القاء بعض اوامر عقبها صياح الجنود متهددين . فتوقف الجميع عن المسير وتقرب الجنود من بعضهم . واذ ذاك شوهدت سرية من الفرسان قد اطلقت الاعنة وراء امرأة شابة كانت قد طلبت لنفسها الخلاص من ربقة الاسر . ولسوء حظها لم تبعد قليلاً حتى القى عليها القبض اولئك الجنود البرابرة وعادوا بها يصفعونها بسيوفهم ثم ربطوها من رسغيها الى حصان احدهم وساروا بها على هذه الصورة الى منتهى سفرها . وكان فرار هذه البائسة قد اضرم في فؤاد الضابط نيران الغضب فاوعز الى أهل الاسرى واصدقائهم ان يعودوا على اعقابهم ما لم يريدوا ان يشاركوا المنفيين في بلواهم . وهكذا ابطل ما كان قد سمح به قبلاً من ان يرافق الاسرى اهلهم الى صليب الطريق . ولم يستطع هؤلاء المنكودو الحظ ان يعانقوا اقاربهم واصدقاءهم الذين فصلوا عنهم ولربما لن يشاهدوهم فيما بعد

وكان جوليان كغيره فلم يستطع سوى ان يصافح مرتا سريعاً

فاوصته هذه :

تذكر خصوصاً ان تأتي الى عين السوسن مدة يومين

فاجابها هذا مرتعداً :

ناشدتك الله لا تحاولي الفرار . وقد رأيت منذ هنيهة ما سوف يحل بك ان فعلت

ثم اتجه نظره الى تلك المسكينة المقيدة التي تسير وراء الحصان ناحبة باكية . فقالت له هذه :

ثق بي ولا تجزع

ثم اشارت مودعة ولم يخامر الخوف والجزع قلبها . ولم يستطع جوليان الا الاعجاب ببسالتها وبقي مدة على منحدر الطريق جامداً يتأمل في تلك الجموع المبتعدة عنه وهو يلمح مرة بعد اخرى قبعة مرتا وهي سائرة شديدة البأس جريئة ورداؤها على ذراعها

واخيراً لم يعد يرى سوى صفي الجنود وكتيبة الفرسان يسيرون والغبار قد ثار حولهم نحو السماء . وحينئذ خارت قواه وخانه الصبر فطفق يبكي بكاء مراً . ولما اختفى كل شيء عن ناظريه رجع متهادياً الى « مزرعة سنت » برب وذهب توًا الى السيدة مورين فعانقها وكانت هذه قد ابكمتها البلوى . فجلست وعيناها شاخصتان وهيئتها تدل على التهدد والوعيد فقال لها برقة :

لا تجزعي لفراقي فانني ذاهب الى عين السوسن

— وماذا تفعل هناك

— وعدت مرتا بذلك

فلم تفقه السيدة مورين مراده فقبّلته قائلة: بحراسة الله يا عزيزي لا تغتم كثيرًا فان ما حدث سوف يصلح ولن يذهب ما فعله هؤلاء اللئام بدون عقاب

منبه الناظر العسكري قطبس

استطاعت مرتا ان تضبط عينيها من ذرف الدموع وتظهر بمظاهر الثبات لا لانها باسلة ومتملكة على ارادتها فقط بل لانه كان يتردد في رأسها خطة جديدة للنجاة من اسرها. لم يخطر ببالها ان تقتدي بتلك السكينة التي ارجعها فرسان الالمان بجفاء. وعنف الى ما بين الاسرى — وكيف يتيسر لها ان تنجو من زمرة الجنود المسلحين وكتيبة الفرسان الذين يراقبون بانتباه كل حركة واشارة يأتي بها الاسرى. لكنها توقفت الى وسيلة اخرى خطرت في بالها مذ ربطت السيدة مورين القطع الذهبية في منديلها ولهذا السبب اكدت لجوليان انه سيراها عن قريب وحرضته خصوصاً على المجيء مدة يومين الى عين السوسن

بينما كانت مرتا واقفة على حافة الطريق مشغولة البال لا تأكل ولا تشرب ولا تميل الى اخذ قسم من الراحة كغيرها حضر ضابط الماني جديد وشرع يعرض الاسرى. واسم هذا الضابط «قطبس». ومما يستميل فيه النظر ويجدر ذكره هو لحيته العريضة الشقراء. وقد جلست على شكل مروحة. وانفه الافطس الضخم الذي يشبه الاجاصة. وهو مع ذلك يتكلف اللطف والمودة ويبش بوجه الاسرى

بخلاف ما عهدناه في زميله السابق الذكر . لكن عينيه تلمعان بنور الخبث وينبعث منهما شرار الرداءة من تحت نظارتيه . ولا يخفى على الرائي ان هذه العصا من تلك العصية وان العرق دساس فهو كغيره من ابناء جلدته لا يؤمن له . وكان يتكلم بسهولة اللغة الفرنسية ويسلو احياناً بالقاء بعض الاسئلة عليهم

لم يتمالك عند مروره بمرتا من ان يقطب وجهه ويلحظها شزراً كأن مرأى نظرها الحاد وهيئتها الدالة على تصلب الرأي لم يكونا ليولدا في قلبه الثقة بها . وقال في نفسه انها لمن اولئك المتمردات اللواتي لا يبلغ الى اخضاعهن الا بعد الجهد العظيم ولن يقمعن ابداً قمعاً تاماً

وكانت مرتا قد تأملت طويلاً بالناظر قطبس ولم يكن ذلك منها طمعاً باللهو بمشيته المضحكة وليس الوقت وقت لهو ومزاح . لكنها فهمت للحال ان هذا هو الضابط الذي يلزمها لاتمام ما عزمت عليه فنفضت للحال منديلها بعد ان فكت عقدته فسقطت منه القطع الذهبية الثلاث ولمعت بخشخشة على حصى الطريق

ولما سمع قطبس موسيقى الذهب الثمينة النادرة توقف فجأة . ولمعت اسرته ببرق الحرص والطمع الشديد واشار الى جندي ان يلتقط القطع ويؤديه اياها . فاخذ يقلبها ويثقلها بيده ولم يخامره شك انها نقود حقيقية لا مزيفة . ثم انتقلت عيناه من النقود الجميلة الى تلك التي نثرتها بغباوة لا مزيد عليها . ولم يكن ياوح على وجه مرتا حينئذٍ التمرد والعصيان كما كانت سابقاً فهي الان خجلة

فاشار قطبس الى اثنين من الجند فاخرجاها من محلها وأبعداها قليلًا عن رفيقاتها وشرع الناظر يسألها : اليست لك هذه النقود الذهبية . فقالت مرتا انها تخصها . فاستتبع هذا كلامه قائلًا : انك مذنبة باخفائك اياها وكان الواجب عليك ان تعلنيها للقوة الحاكمة . ثم اردف كلامه قائلًا وقد اصبح اقل جفاء :

هل لديك غيرها . ان في امكانك التعويض عما سلف وسوف يكافأ عملك هذا ان نطقت صادقة

فطأطأت الابنة رأسها وقد احمرّ وجهها خجلًا فلم تحر جواباً

فلجّ بالسؤال عليها قائلًا : اسألك ان كان لديك غير هذه القطع الذهبية فلا تجزعي وجاوبي بصراحة

فاجابت مرتا همساً : لا ليس هنا

وكان لهذه العبارة وقع في نفس قطبس رقصت له جميع جوارحه طرباً . واذ اشتم رائحة الذهب تقدم من مرتا قائلًا :

يسرني ان لديك ذهباً غير هذا . فقولي الصدق ولا تخشي ملامة فلن يوصل احد اليك اذية ولا ينحي عليك باللوم . لا بل ستعاملين بما لا مزيد عليه من الرفق ولكن صرحي اين هذا الذهب فاجابت مرتا بسذاجة صبيانية :

انه ليس لي ولكني اعرف اين مخبأه

فصاح بها الناظر : اين هو . اين هو ؟

حينئذٍ قالت له مرتا بصوت رقيق ولهجة الخائف بعد ان

ترددت قليلاً كمن يريد ان يفشي سرًا :

عند عين السوسن

وخيل الى الناظر ان هـذا الاسم غريب فاستعاده مرات ولم يهدأ له بال حتى وجده على الخارطة فقاس المسافة ولما تثبت ان عين السوسن لا تبعد الا ميلاً واحدًا عن مزرعة سنت برب قـال بلهجة المستبشر : ليس ببعيد عن هـذا المكان . اني اعرف اين موقعـه ويكفي ان نسير على هـذه الشعاب من عن يسار الطريق فنصل اليه . ثم القى ببعض أوامر الى الجنديين اللذين جاءا بمرتا وتوجه الى زميله الثاني الذي كان يدخن متأملاً فقال له :

— هل لديك بعض تدقيقات عن وصول الفرنسيين الى المحلات التي اخليناها

— لا يمكنهم الوصول اليها الا بعد يومين لانهم يجهلون اننا قد تركناها

— ومتى يسافر هؤلاء الناس اليس مساء اليوم ؟

— الساعة الحادية والعشرين تماماً

— وبناء عليه لا بأس في رجوعي الى نواحي مزرعة « سنت برب »

— لا بأس في ذلك

— لا يحتمل تغيبي الا ما يستغرقـه من الوقت ذهابي وايابي او ما يقارب الساعتين وساستصحب جنديـين زيادة للامن مع انـه لا خطر علينا في هذه الناحية التي كنا فيها منذ سويعات ولم نترك فيها سوى الشيوخ والمرضى

فحدق في الناظر زميله وقال له بلهجة المازح :

هل نسيت شيئاً في مزرعة «سنت برب» ؟

فاجابه قطبس وهو يتلاعب بلحيته : اجل نسيت ثمّ كثيراً من النقود الذهبية ولا شك انها مما يستحق المشقة . ثم اضاف الى قوله السابق ما يلي ترغيباً لزميله واستعطافاً له قال : لا شك ان لك من ذلك قسماً وافراً

ثم قص عليه ما يعلمه القارئ من امر القطع الذهبية الثلاث وكيف استخلص الحقيقة بالحاحه في الاسئلة على تلك الابنة الجاهلة

ولم يحتج قطبس الى ايراد براهين قاطعة عديدة لاقناع زميله لان هذا اغترّ بما قيل فطمع بالحصول على شيء من هذه اللقطة فقال له ناصحاً :

لي اليك مشورة وهي ان تستصحب الخادمة الصغيرة وان لم تتمم مواعيدها فتهددها بان تعدمها قتلاً بالرصاص واقرن الفعل بالقول عند مسيس الحاجة

— لقد نطقت بما في ضميري وعلى هذا كنت عازماً . يسهل كل صعب في الحصول على الذهب وكل الوسائط جائزة لذلك . فاللطف والملاينة في ابتداء الامر ثم القوة والقسوة . ثم عاد الى مرتا وكانت هذه تراقبه كل هذه المدة دون ان يأبه لها فقال :

هلمي امشي امامي . ها نحن اولاء ذاهبون في طلب المال فان كنت قد غششتني فلا تلومنّ الا نفسك وان كنت صادقة فلن تكوني نادمة على فعلك هذا

لم تزل مرتا بعيدة عن بلوغ أمنيتها والنجاح في مـا عزمت عليه لكنها نالت نتيجة حسنة وعادت على اعقابها واولت ظهرها طريق المنفى وهي سائرة الى عين السوسن حيث ينتظرها جوليان. هذا ان لم يكن قد اخلف بوعده

وبعد ذلك ببضع دقائق شوهد على تلك الطريق التي كانت حافلة بالمنفيين التعساء، ومن يخفرهم بضعة انفار سائرين الى عين السوسن

وكانت مرتا تسير صاغرة بين جنديين بروسيانيين شاكي السلاح وامامها الناظر قطبس شارعاً أنفـه ولحيتـه الى الريح ينبعث من عينيه نور الفرح وفراغ الصبر للحصول على الكنز

البحث عن الكنز

كان جوليان متمددًا عـلى العشب الاخضر قريباً من عـين السوسن يتذكر الحوادث المحزنة التي جرت صباحاً ويتنفس الصعداء من وقت الى آخر ويفتكر في مرتا ويتصور انها لم تزل سائرة عـلى طريق المنفى يحيط بها جنود البروسيان. غير ان محور افكاره كان يدور على وصيتها الاخيرة التي الحت بها عليه ان يأتي مدة يومين الى عين السوسن. فما السرّ في طلبها هذا ولماذا ترغب شديد الرغبـة في بقائه بالقرب من ذلك المكان ؟

وفيما هو يردد هذا الفكر في عقله اذ سمع فجأة تغريد شحرور قويّ فانتفض لدى سماعـه انتفاض المذعور وما شك قط ان المغرّد هو مرتا لانها وحدها قادرة على الاتيان بمثله وكثيرًا ما تلهى

واياها حين الفراغ من اشغالها بالاقتداء بالشحارير طلباً للسلوى وقد بلغا في التغريد درجة قصوى من الكمال حتى اصبحت العصافير تجاوبهما لدى سماعها صوتهما

فغرد جوليان مجيباً وختم تغريده بثلاثة اصوات متقطعة تعرفها مرتا فاجيب بمثلها . فانقشع عن عقل جوليان ضباب الريب وعرف انها مرتا فاسرع ما امكنه عرجه الى الناحية المؤدية الى دهليز الرهبان وهناك تمكن من الاستتار . فرأى مرتا قادمة مع ثلاثة من البروسيان جنديين وضابط وكان هذا يرعب الناظر بمرآه ويزيد في القاء الرعبة في قلب مشاهدة أنفه الضخم ولحيته الكثيفة الشقراء تلمع بضياء الشمس كأنها شعلة نار . ولم يعتم ان رآهم داخلين الدهليز حيث قد عزمت مرتا ان تمثل دورها الاخير

كانت هذه الفتاة الضعيفة بين اعدائها الثلاثة الاقوياء المدججين بالسلاح واحدهم الناظر الخبيث الذي لم يفتأ يراقب حركاتها بانتباه واحتراز شديد . فعليها والحالة هذه ان تعمل بحكمة ودهاء وشجاعة

سألها قطبس للمرة الثالثة والشرر يتطاير من عينيه « اين ذلك الكنز ؟ فاجابته بدعة : هوذا هنا فما بقي عليك الا ان تبحث عنه » . قالت هذا وطفقت تعدّ الحجارة ثم توقفت وقالت بثبات جأش لا تزعزعه عواصف الريب مشيرة الى موضع تجمع فيه عدد من البلاط : « هو هنا بلا ريب »

فلم يتوقف قطبس هنيهة لدى سماعه هذه الكلمات واوعز

الى الجنديين ان يحفرا بعزم وسرعة في المكان المعين . فالقى هذان بندقيتيهما واخذا يحفران بما لديهما من الادوات الموجودة في الدهليز ويشجعهما الناظر بقوله وعمله . اما مرتا فكانت تنظر الى الارض المحفورة كأنها تنتظر من دقيقة الى اخرى ظهور الكنز الموعود به . وكان مشهدها طبيعياً للغاية حتى أخذ به الناظر وجعل يقتدي بهما متنصتاً لعله يسمع وقع الادوات على الصندوق . لكنه لم يلبث ان اطاع داعي الضجر اذ لم يشاهد في ما حفره الجنديان سوى حجارة وشيئاً من الكلس . ولا اثر فيه للكنز المزعوم

ورغماً عما ابدته مرتا من رباطة الجأش قد جعل قلبها يخفق شديداً وبدأت فرائصها ترتعد . وفهمت من هيئة الناظر الغضوب وتهديد الجنديين وتذمرهما ان مسعاها اوشك ان يخيب . وان سوف يشعرون انها قد استهزأت بهم . فكان القسم الثاني من مشروعها اكثر خطراً واوفر صعوبة مما سبق ومن الحكمة ان تسرع في انجازه قبل ان يشعر البروسيان انها قد تلاعبت بهم

اقبل الثلاثة على العمل بنشاط واتجهت كل قواهم العقلية والجسدية الى التفتيش عن الكنز الموهوم فهم ينتظرون ظهوره بفارغ الصبر وما عليها والحالة هذه الا ان تسجنهم في ذلك المكان وتركن الى الفرار . غير انه لم يكن في امكانها ان تحرك الباب الحديدي وحدها وخصوصاً في تلك الساعة التي يجب فيها العمل بسرعة واغلاق الباب بالقفل الذي يمكن ان يكون الصدى أكله . ولحسن حظها كان جوليان هناك لمساعدتها . قد تمثلت كل هذه

الصعوبات في ذهنها لما قالت له ان يحضر الى عين السوسن . وينبغي لها الان ان تجتمع بجوليان في مدخل الدهليز بدون ان تنبه اساءة ظن البروسيان بها . ولم يفتها ان لاول خطوة تخطوها نحو الباب يظنون بها سوءا فيسرعون الى القبض عليها . ولم يكن ترددها خوفاً من القبض عليها فهي تعلم من نفسها انها قادرة على الافلات منهم . وهي نشيطة وخفيفة الحركة وعارفة بطرق ذلك الغاب اتم معرفة فلا يستطيعون اللحاق بها مهما اجتهدوا . غير انها ان فعلت ذلك وهم مطلقون القياد تخشى من شرهم ولم يكن ما شاع عنهم من القسوة والظلم والتشنيع في القرى والامكنة التي خابت آمالهم فيها او لم يبلغوا فيها كل ما شاؤوا الا ليصدها عن عملها هذا لان الناظر قطبس لا يغتفر لها هربها وما سيلحق به من العار في حكاية الكنز المختلقة . فانه اذا ما بلغ غيظه اشده لقادر على طلب نجدة قوية فيحرق القرية ويسفك دماء الاحياء من اهلها وهذا ما كان يثبط عزمها ويثنيها عن الالتجاء الى الفرار وجعلها تفكر طويلاً في ايجاد حيلة تمكنها من سجن هؤلاء الاغرار حراسها دون ان يمس مخلوق بضرر . ومن ثم اضطرابها وخفقان قلبها الشديد وهي تنظر كأنها متشوقة الى ما يفعله الجنديان والعرق يتصبب من جباههما كمن افواه القرب ولسانهما يجود بالتهديد والوعيد

وما هي الا هنيهة حتى لمعت اسرّة مرتا فتبسمت وبرقت عيناها من الفرح واتسم وجهها بسيماء العزيمة اذ قد وجدت عذراً للوصول الى الباب دون ان تنبه حراسها الى سوء الظن بها . فاشارت الى الجنديين اللذين

يشتغلان بمعازق عتيقة وقالت للناظر قطبس : « ويحاً لي ما اشد حمقي تذكرت الان ان وراء الباب معولاً ومنكاشاً والشغل بهما اسهل من العمل بهذه الادوات » ثم توجهت الى مدخل الدهليز سائرة سيراً طبيعياً حتى ان الناظر لم يخامره ريب في صدق نيتها وما عزمت عليه بل استصوب رأيها . وعلقت تبحث وراء الباب بين الادوات التي كانت هناك

ثم نادت جوليان بلطف فانساب هذا الى قرب المدخل متحفظاً ان يراه احد وقال :

ماذا يفعل البروسيان داخلاً

— أوهمتهم ان في الدهليز كنزاً فهم يبحثون عنه

ثم قالت بصوت منخفض : علينا ان نسجنهم هنا هلمَّ ساعدني على اغلاق الشباك الحديدي فلا استطيع ذلك وحدي ثم نقفله بالمفتاح واظن ان الصدأ أكله . فلنتكل على الله اليك هذا مفتاحه

ثم طرحته له واذ ذاك صاح بها الناظر قطبس : ماذا فعلت بالمعول والمنكاش لعلك آخذة في اصطناعهما ؟

فاجابت مرتاً مظهرة ما وقع تحت يدها من الادوات : هاهما ذان ولكن بدلاً من ان تعود الى الناظر ورفيقيه اشارت الى جوليان وكان يراقب جميع حركاتها ان أقبل

فاخذا يحركان الباب ليقفلاه . وقفا خارج الدهليز ودفعا الشباك ليقفلاه بالمفتاح فلم يتيسر لهما ذلك وكأن يداً سرية تعرقل مسعاهما وكان المانع مزلاج من حديد ضخم قد شبك باحد قضبان الشباك

ولا بدّ من الولوج الى الدهليز لازالة هذا العائق الجديد ورأى ذلك جوليان فلم يتردد اصلًا والقى بنفسه الى الداخل فازال المانع . غير ان صرير الباب نبه خاطر الناظر فتطلع فتجلت لديه الحقيقة والقى ببعض الاوامر الى الجنديين فهرول الثلاثة مسرعين . وادرك جوليان خطورة الحالة فان حاول الخروج من الدهليز وشاء ان يغلق الشباك ويقفله لا يتمكن ابدًا من انجاز عمله هذا ولم يكن الجنديان الا على مسافة قصيرة منه . ففضل ذلك الولد الباسل البقاء بين ايدي اعدائه ونجاة مرتا . فدفع الباب بكتفه دفعة قوية وادار المفتاح في القفل ثم دفعه الى مرتا قائلًا : « انجي بنفسك وما اراك بمفلتة »

فقالت مرتا وقد امتقع لونها : وانت ؟

لا خوفَ عليّ . سانتظر عودتك

ولم يتمكن من الزيادة اذ ان يدين من حديد كأنهما كلابتان قبضتا عليه ورمتا به بعيدًا . وتعلق الجنديان بالباب يحاولان تكسيره . ولكن أنّى لهما ذلك وهو امتن من صخر ولم يستطيعا ان يحركاه تحريكًا اذ كان متينًا للغاية رغمًا من قدمه وقد اعدّ لاحتمال اشد المقاومات

وتقدم الناظر من الباب بدوره وجعل ينظر الى الخارج لعله يرى تلك التي اقدمت على هذه الفعلة الشنعاء . فلم يرَ سوى العليقى والاشجار المختلفة النابتة في تلك البقعة . وحينئذٍ نظر الى جوليان نظرة الذئب الشرس الى الحمل الوديع صارخًا به ومتهددًا هذا انت ايها اللعين الذي ساعدتها على الفرار . بشّر نفسك بقرب

الاجل

لكن جوليان لم يجزع لهذا التهديد بل تبسم وقد افتكر ان مرتا الباسلة تسير مطلقة السراح فرحةً الى البيت . قد قاست الامرّين وهي منذ الصباح في صحبة هؤلاء القوم الاجلاف . والان حان له ان يتألم قليلاً بدوره

العود الى المزرعة

مضى على جوليان المسكين خمس دقائق وهو يظن نفسه في قفص بين وحوش مفترسة لان الجنديين كانا يسبانه ويتهددانه . اما الناظر فكاد يتميز من الغيظ وشرع يسير في الدهليز على غير هدى وسيفه يقرع على البلاط

ولم يبعد عن فكر الجنديين الايقاع بالذي مالأ الابنة على سجنهم . لكن الناظر رأى من الحكمة ان يؤجل الاثنار من ذلك الولد . لان المهم المقدم هو الخروج من ذلك النفق . وسيرون فيما بعد كيف يعاملونه . واسرع قطبس الى اقصى الدهليز ليرى ان كان ثم منفذ يمكنهم من الخروج فلم يجد . فارسل الجنديين يعالجان الشباك ليكسراه او يفتحاه فلم يفلحا وذهبت اتعابهما ادراج الرياح

وحينئذٍ قرّ رأيه على وسيلة وحيدة لم يبقَ لديه غيرها . فاوعز الى الجنديين ان يحفرا امام الباب رغبةً في ايجاد منفذ الى الخارج من تحت الشباك ولربما يبلغون المأمول من حفر سرب فيستطيعون ان

يمروا منه بسهولة

لا ريب ان في عملهم هـذا مشقة عظيمـة ويجب ان يكون هذا السرب واسعاً جداً وعميقاً ليكون وافياً بالمرغوب . ولم يخشَ الناظر من ان ينزع رداءه ويتسلح بمسحاة لا يعرف كيف يستعملها وصاح بجوليان قائلاً : اليك مجرفة وساعدنا على حفر هـذا السرب وحذار ان لم يتيسر لنا النجاة من هنا في الوقت المناسب

فاخذ جوليان مجرفة وشرع بالعمـل مسروراً في نفسه اذ يعلم ان عليهم شغلاً شاقاً يستغرق وقتاً طويلاً قبل ان يتوصلوا الى حفر سرب يمكنهم من المرور الى الخارج وخصوصاً قطبس الضخم

اما مرتا فلم يكن يهدأ لها خاطر الا بانقاذ جوليان الذي طوّح بنفسه حباً بنجاتها . فخفّت الى مزرعة « سنت برب » مارة بشعـاب تعرفها وحدها . وهي تناجي نفسها كيف تفاتح السيدة مورين بما وقع لها ولجوليان وتفتكر باندهال تلك المرأة الفاضلة عند مشاهدتها خادمتها التي تظنها عـلى طريق المنفى . لكن دهشة مرتا كانت اعظم جداً لما ستراه في البيت مما تصورته في غيرها لمرآها

وبينما هي داخلة الى النفق تلهث من شدة الركض والتعب وجدت السيدة مورين تتجاذب اطراف الحديث مع جندي فرنسي . ولم يكن هذا الا ولدها . بلغ معسكر الفرنسيين ان الالمان أخلوا تلك الناحية فـاسرع جنود فرنسة واحتلوهـا وكان بـين جنود الاحتلال الذين يقيمون في القرية لويس مورين برتبة ملازم وقد نال وساماً تلقاء ما ابداه من الشجاعة ورباطة الجأش في ساحة الحرب

ولا يصعب ان يتصور شدة رغبته في الوقوف على احوال المزرعة والتقائه بوالدته التي لم يكن قد بلغه عنها شيء منذ احتل الاعداء تلك الجهة . ولم يتمالك لويس من اظهار استيائه لدى اطلاعه على ما حلّ ببيته من الخراب والنهب . غير ان فرحه برؤية والدته نشيطة معافاة أنسته كل ما ألمّ به وبملكه من الخراب

ولما شاهدت السيدة مورين خادمتها اسرعت اليها فعانقتها قائلة أعطي لي ان يكون فرحي كاملاً في يوم واحد . كيف فعلتِ ؟

فاجابت هذه : قد فررت منهم

— وجوليان اين هو الان ؟

— لم يزل في الغاب . ثم ذهبت الام لتحضر شراباً فتقدمت مرتا من الضابط وقالت له :

لم يزل جوليان مسجوناً مع البروسيان . لم ارد ان اصرح بهذا امامها

فاشار اليها : ان اسكتي . ثم قال : لا بأس عليهِ . سوف انجيه من شرهم فهذا متعلق بي

ورجعت الام ومعها زجاجة الشراب قائلة وقد اتسم الفرح على وجهها : كان قد حان لهؤلاء الالمان ان يرحلوا عنا وقد فرغ الشراب ولم يبقَ شيء من اللحم المقدد . فقال لها لويس :

لا تقلقي يا اماه فهانذا ذاهب لاحضار مؤونة كافية قد استحضرنا جميع ما يلزم لاغاثة سكان هذه الناحية البؤساء . ثم انتهز فرصة فقال : لتأتِ مرتا معي ولتأخذ سفطاً كبيراً . فبعد ساعة

نرجع وقد احضرنا معنا ما يلزم لاعداد عشاء شهي.

قال هذا وخرج مع مرتا الى ان ابتعدا قليلاً فقال لها: ماذا تقولين وكيف يكون جوليان مع البروسيان واين هم الآن. فقصت عليه وهما يسيران قاصدين عين السوسن جميع ما وقع له وكيف انه بذل نفسه فداء عنها وختمت كلامها قائلة: هلمّ نخلصه

وكان لويس مورين شجاعاً يتدبر برأي وحكمة وقد استحق فوق العشرين مرة مرتبته والوسام المقلد به. فقال:

وكم عدد هؤلاء البروسيان ؟

— ثلاثة، ضابط وجنديان

— فاذاً انا لهم ولا بأس علينا منهم. هلمي اسرعي الخطى

ثم جرى وجرت مسرعة وكان يطاب منها بعض تفصيلات. ثم سألها عن مفتاح الدهليز فقالت: ها هوذا معي وقد كان جوليان رمى به اليّ

مالت الشمس الى المغرب غير انها لم تزل ترسل اشعتها على الغابة فتنيرها وسلكت مرتا الشعب المؤدية الى عين السوسن فبانت لها العين وتبعها الضابط وقد اخرج مسدسه وتثبت انه محشو. فقالت مرتا:

اننا قد وصلنا وهاءناذه منبهة جوليان

— وكيف تستطيعين ذلك ؟

فعلقت تغرد مصفرة كالشحرور حتى ان الضابط أدهش ببراعتها

فقالت : انه يعرف اننا وصلنا

وكان البروسيان قد حفروا في الدهليز حفرة عظيمة تحت الشباك . وقد جرب الناظر اكثر من مرة ان كان يمكنه المرور فلم يفلح . ولما سمع جوليان مرتا تصفر طابت نفسه وزال عنه بعض القلق . فشرع يشتغل بنشاط وهمة غير معهودين ولحظ الجنديان وقطبس منه ذلك فلم يعرفوا ما السبب

ولما كان الناظر يجرب لآخر مرة ان كان يقدر على الخروج القى لويس مورين بعض اوامر كأنَّ وراءه شرذمة من الجنود ثم شهر مسدسه وتقدم الى امام الشباك قائلًا : سلموا او تقتلوا

فبغت هؤلاء لهذه المفاجأة ولم يشكوا ان فئة من الجنود قد احاطت بهم . فرفعوا اذرعهم من وراء الشباك مستسلمين . اما الناظر فسدد مسدسه الى صدر الضابط الفرنسي . لكن سلاحه لم يبق طويلًا بيده لان جوليان عاجله بضربة من مسحاته على رسغه فاطار المسدس من يده . فوقع من الباب الى الجهة الخارجية فالتقطته مرتا وتهددت به قطبس . ولما رأى هذا ان المقاومة لا تجديه نفعاً اضطر الى التسليم فاقتدى برفيقيه . فاخذ حينئذٍ الضابط المفتاح من يد الخادمة وفتح الشباك وهو مصوّب سلاحه الى البروسيان . وكان ذلك احتياطاً باطلًا لان الجنديين سرًّا بتسليمهما وبشرا انفسهما بانهما سيأكلان ويشبعان عما قليل . وتردى الناظر رداءه وثاب اليه الوقار الذي لا يفارق اهل السلطة من بني قومه . وحينئذ سار البروسيان أحادَ يحيط بهم مرتا من جهة وجوليان من اخرى .

وكانت مرتا لم تزل شاهرة مسدس الناظر وتنكب جوليان بندقية احد الجنديين وتنكب الاخرى لويس مورين سائرًا في مؤخرهم وهو يدخن

ولما شاهدت السيدة مورين هذا الموكب واصلًا الى باحة الدار رفعت ذراعيها الى العلى هاتفة بصوت العجب والفرح :

من اين اصطدتم هذه القنائص ؟

فاجابها ابنها الضابط ضاحكاً « من عين السوسن » . ان مرتا وجوليان سجناهم في الدهليز . وقد قيض لي ان القي القبض عليهم وهاءنذا اقودهم الى القرية فيسر القائد جدًا بهذه الهدية

ثم اردف قوله : وسنحضر مؤونة لاني اشعر بالجوع

وفي مساء ذلك النهار كان عيد عظيم في المزرعة واقيمت وليمة فاخرة وان يكن السماط ممدودًا في السرب وعلى خوان نخره السوس وقد قدمت الاطعمة بصحون متباينة . ولم يبق للسيدة مورين من داع للحزن سوى ما تراه من الخراب حواليها وكم من مرة قد استرسلت لعامل الغضب فقالت :

لم يحجم هؤلاء الاشرار عن اخذ ما بقي لي من ادوات الطبخ الحديدية وقطع شجرة الكرز الوحيدة التي بقيت لي . وحينئذٍ كان يجيبها ابنها :

لا تجزعي يا اماه سيعود كل شيء احسن مما كان عليه . انما المهم الآن هو ان نطهر ارض الوطن من هؤلاء الارجاس ونؤمنه من الوقوع ثانية في مثل هذا الخطر . واذ ذاك نكون قد بلغنا اقصى

الاماني . ولن نذخر شيئاً مهما كان ثميناً في سبيل القضاء على هؤلاء الترابرة .

والآن فلنشرب نخب :

« الاسيرة الصغيرة »

العقاقيريّ العالم

العقاقيري العالم

كان الالمان قبل سنة ١٩١٤ قد نظموا الجاسوسية في فرنسة تنظيماً كاملاً استعداداً للحرب الكونية ولم يدخروا شيئاً حتى تكون تامة من جميع الوجوه. ولذلك بثوا عيونهم في كل مكان. فلم يكن مهندسو «البوش» في ارض فرنسة والسماسرة والمستخدمون والطلبة منهم سوى عيون على ما يصنعه الفرنسيون لكي يخونوهم متى حان الوقت المناسب

وكان هؤلاء الجواسيس من سائر طبقات الهيئة الاجتماعية من الشيخ الهرم الى الشاب اليافع ومن الآنسة الخفرة الى السيدة الكبيرة، يتكلمون بسهولة اللغة الفرنسية ويقطنون فرنسة منذ سنوات وكان لبعضهم علاقات ودادية مع اشهر الأسر الفرنسية. ومن ثم يسهل فهم ما كان يحصل عليه كل منهم من الافادات بما يتعلق بمصالح دولتهم الحربية

وقد تمكنوا بخبثهم وصبرهم وتصنعهم وجميع ما لديهم من الوسائل من معرفة ما يتعلق بالجسور والطرق وما لية الوطنيين ومرافق غناهم

اما شركاتهم الصناعية فقد كانت تبتاع الاراضي بالقرب من المدن الحصينة وهناك كانت تهيئ الاديم سطوحاً مرصوفة بحجارة او غيرها وتعدها لمدافعهم الضخمة وتموه على العامة انها لآلاتهم الصناعية

ولما اعلنت الحرب اختفى بغتة اكثر هؤلاء الجواسيس . لكن عدداً عظيماً عادوا كضباط يقودون جنودهم الهمجية الى ساحة القتال . وغيرهم بقي مواظباً على مهنته الدنيئة ابان اجتياح البلاد متسترين تحت ثياب الضباط الفرنسيين وجنودهم او بملابس النساء .

وقد نال عدد منهم جزاء ما قدمت ايديهم

وقد اخترت لك حادثاً من هذه الحوادث العديدة

*

قبل حدوث الحرب الكونية بسنتين قدم شاب اشقر الشعر غضّ الاهاب طويل القامة الى احدى قرى الارغون من اعمال فرنسة . وكانت هذه القرية ذات اهمية كبرى رغماً عن صغرها لانها واقعة في مضيق فتان بين جبال الارغون ولان جميع اعداء فرنسة القادمين من جهة الشمال الشرقي قد بذلوا ما في طاقتهم ليمروا بها

وكان ذلك الشاب يقول عن نفسه انه بلجكي يدعى « جان فانبول »

فحط عصا الترحال في تلك القرية واقام فيها كعقاقيري دأبه التجوال في جبال الارغون والمروج الواقعة على ضفتي نهر يمر بتلك الناحية ليجمع ما تصل اليه يده من العقاقير والنباتات المختلفة الاجناس

وكان يقول : لم تر عيني الدهر بلاداً خصها الله بجميع انواع النبات والزهور النافعة كهذه الناحية فانها جنة العقاقيريين

وتمكن بحسن اسلوبه من اكتساب محبة القرويين ولم يعسر عليه ذلك لانه كان دمث الاخلاق لطيف المعاشرة رقيق الجانب لا يتبجح بمعارفه بشوش الوجه وكان يبادر الى ملاطفتهم ولا يضن عليهم بمشورة ابان مرضهم أو متى كانت مواشيهم في حاجة الى بعض المداواة والعلاجات

ولم يكن يدور لسان الاهالي الا بالثناء عليه فيقولون « ما أغزر علم هذا الرجل — ان السيد فانبول يعرف النباتات وخواصها معرفة دونها معرفة الصيادلة—ما اعجب هشاشته واسرع همته الى اصطناع المعروف الى الجميع—لا ريب ان في مجيئه الى هذه الناحية واقامته بين ظهرانينا سعادة للبلاد وللسكان معاً »

وكان يثلج صدر العقاقيري لهذا الثناء فيشمخ بانفه معجباً ويسير جائلاً في جميع الجهات مصطحباً في غالب الاحايين آلة يصور بها اجمل المناظر التي يستحسنها في تلك الناحية . وكثيراً ما سمعه القرويون يقول : « خصت هذه البلاد بمناظر تأخذ بمجامع الفؤاد حتى اني أسهو بعض المرار عن جمع العقاقير لاهياً بتصوير بعض المشاهد الجميلة . . . »

وكان اذا عاد المساء الى منزله يشاهدونه حاملاً كمية وافرة من النباتات ومتأبطاً مجموعتها فيلج غرفته ويقفل بابه دون الزائرين الى الصباح

فيقول من يراه من السذج : « انه يرتب ما جمعه . لله دره ما اعظم مثابرته على تحصيل العلوم فهو لا يكتفي بقضاء نهاره مفتشاً

بل لا يفتأ صارفاً ليله في البحث والدرس — اعظم به من عالم ! »

غير ان الدهاة لم يؤخذوا بهذه الظواهر بل كانوا يقولون: « ما الغرض من هذه الرسوم المتعددة . ان تفقد هذه الارجاء لا يقتضي أشهراً بكاملها . وهذه العقاقير ما الفائدة منها ؟ فلا بد لهذا البلجكي من ان يكون قد جمعها كلها منذ زمن طويل »

فكان محبوه يجيبون : « انه يبيعها لفكتور الصيدلي الا ترونه يكثر الذهاب الى المدينة »

ويقولون : ليس من وراء هذه النباتات ربح عظيم ومع ذلك ترى ان لديه مالاً وافراً

فيجيبون : هذا شاب غنيّ لكنه غريب في اطواره وعوائده ومشغوف بحب الطبيعة . لكنه يتخذ من غناه واسطة لمنفعة ابناء جنسه والاحسان الى رقيقي الحال . ألا ترون انه هشّ المكسر وضيع الجانب محبًّا للبائسين ؟

ولم يعدم جان فانيول اصدقاء مخلصين يدافعون عنه ويحمونه من السنة الحسدة ويردون سهام اللوم عنه وكفّ فضولهم وصرفهم عنه باللتي هي احسن . ومن ثمّ صار له شأن عظيم ونفوذ لدى سكان قرية ف . . . الصالحين والسليمي القلوب . ولم يصعب على جان فانيول ان يفتنهم بمظاهر ثروته ولطفه وبشاشته ، والبشاشة كما قيل رشوة من لا مال له ومصيدة المودة . لا بل ان اكثر من واحد من اولئك القرويين الاغنياء قد عدّل نفسه وتمنى ان يزوج ابنته من شاب كجان لطيف المعشر وافر الثروة

وبناء عليه كانوا يتزلفون اليه ويتسابقون الى مرضاته ويطرؤون على حسن مزاياه فيرونه الاقبية المشحونة من الخمور المعتقة والزروب الآهلة بالمواشي المتنوعة والبيوت الزاخرة بالاثاث الفاخر . واستدرجوا الى اطلاعه على مرافق ثرواتهم والافاضة في وصف دقائقها تحبباً اليه ورجاء ان يستمياوه لطلب الاقتران باحدى اوانسهم

اما هو فكان لا يبدي ساكناً ولا يجيب لا سلباً ولا ايجاباً بل تركهم يندفعون في تيار أوهامهم وهو يدون باعتناء جميع ما يقع لديه من الافادات دون ان يظهر تشوقاً الى ذلك

وكان يعلل تردده هذا قائلاً : لم انجز بعد بحثي عما يتعلق بالعقاقير فمتى بلغت من ذلك كل ما اشتهي اعمد الى الاقامة بين ظهرانيكم بصفة طبيب او صيدلي ثم اختار لي منكم شريكة في حياتي

وكان مضى عليه ما ينيف عن سنة وهو يجول في بلاد الارغون لما أعلن في اوائل تموز سنة ١٩١٤ انه عازم على السفر الى بلجيكا لمدة قصيرة . وقال لاصدقائه :

قد قرّ رأيي على الاقامة هنا وسأختار لي من آنسات هذه الناحية زوجة غير اني عزمت على اطلاع اسرتي على ذلك واحضار بعض وثائق انا في حاجة اليها . وكونوا على ثقة اني ساعود عاجلاً

وبعد مبارحته للارغون ببضعة اسابيع شبت نيران الحرب واغار الالمان على بلجيكا واحتلوا قسماً عظيماً منها ثم استولوا على معامل فرنسة داخلين اليها من فلاندرا والاردين والوفر متوجهين الى

مضايق الارغون لكي يكتنفوا فِردُن

تنوسي ذكر جان فانبول . اما اصدقاؤه فكانوا يقولون لا شك ان ذلك الفتى الاريب يحارب العدو مع زملائه في الجيش البلجكي . قد سافر في الوقت المناسب لخدمة وطنه

وكان الكهول والشبان في الارغون كما في سائر جهات فرنسة قد نزحوا عن قراهم ويمم كل منهم سريَّته . ولم يبقَ في المنازل سوى الشيوخ والنساء والاطفال

ففي صباح بعض الايام خف الرعاة الذين كانوا منتشرين في المروج القريبة من ف . . . ودخلوا القرية هاتفين البروسيان هاهم قد اقبلوا . . . فذعر الاهلون لهذا النبأ وهلعت قلوبهم لذكر هذا الاسم المكروه واختبأوا في بيوتهم . واذ ذاك دخل القرية كتيبة من فرسان الالمان المدعوين « هولان » يتقدمها ملازم ذهب توًّا دون ادنى تردّد الى بيت شيخ القرية وكان هذا رجلًا جليل القدر ذا لحية بيضاء واقفاً على عتبة الباب متأهباً للذهاب الى مكتبه في دار الحكومة للدفاع عن مصالح القرية فقال له الملازم :

سعدت صباحاً ايها السيد س . . . ألم تزل حتى اليوم شيخ القرية ؟ — أجل ومن انبأك عن اسمي ؟

فاجابه الملازم مقهقهاً : اننا نعرف اسماء جميع شيوخ القرى وحكام العاميات في بلادك . هلمَّ بنا الى مكتبك لتسوية بعض أشغال

ثم أومأ الى فرسانه ان يلبثوا امام الدار وتبع الشيخ الى غرفتهِ

في الطبقة السفلى

ولما استقرّ بهما المقام قال الملازم : قد جئت في طلب اعانة حربية من هذه القرية

فلم يستغرب الشيخ من الملازم مثل هذه الوقاحة لانه كان يعرف ما طبع عليه البوش في التجبر والعسف ولكنه حاول التملص من أداء اعانة لاعداء الوطن لا حق لهم فيها فقال :

ولكن ما الذي نقدر عليه وهذه الناحية من افقر البلاد وقد أخذت حكومتنا عدداً غير قليل من مواشينا وعجلاتنا وشيئاً كثيراً من العلف لاحتياجات الحرب . وها نحن الان في آخر درجة من العجز ؟

فبسط حينئذٍ ذلك الضابط على الخوان رسماً كاملاً ومفصلاً تفصيلاً مدققاً عما تحتويه تلك العاملية ولائحة باسماء السكان وبجانب كل اسم منهم ترجمة ما لدى صاحبه من المال من ناطق وصامت

حدث عند ذلك عن دهشة الشيخ ولا حرج

فشرع الملازم حينئذٍ بالكلام فقال : ان هذه القرية لمن اغنى قرى هذه الناحية فان لم تسلمنا ما طلبناه من المؤونة والخيل والعلف التي طلبناها نضطر بحكم الظروف الى استعمال القوة فنأخذها قسراً ثم نلزمكم بدفع جزاء نقدي لا يقل عن خمسين الف فرنك

وبذل الشيخ جميع ما في وسعه لتخفيض شيء من مطاليب الضابط فلم ينجح . وأصمّ هذا فؤاده عن كل شفقة وكان يقول

لا حيلة بيدي . لا يمكنني ان اغير شيئاً من اوامر رؤسائي . وادنى مقاومة تودي بقريتكم وبمن فيها

ان مطاليبنا ليست بباهظة بالنظر الى وفرة المال في هذه الناحية

واذ ذاك جاء ذلك الفارس بتفاصيل مدققة تفوق التصور عن ثروة كل من السكان من ايراد وبيوت وحقول ومواشٍ حتى كاد الشيخ يكذب سمعه فيقول في نفسه :

« كيف امكن هؤلاء القوم ان يطلعوا اطلاعاً مدققاً على اموالي واموال القرويين . ان هذا مما يقضي بالعجب العجاب

ولما لم يرَ بدًّا من التسليم بمطاليب ذلك الضابط قال له يمكنك ان تستلم صباح غد جميع ما تطلب

فاجابه الالماني : نعما ما فعلت واراك بحصافة رأيك وقيت هذه الناحية من النهب والخراب . سنرجع غدًا بكثرة الى هنا

ثم امتطى صهوة جواده وسار مع فرسانه الى المعسكر الالماني وكان بيده رسم القرية واللائحة لا يفتأ يطالعها

ولما بلغوا الى فندق حسن الظاهر واقع على طريق القرية اوقف جنوده وتقدم من امرأة عجوز واقفة على الباب فقال لها :

هل انت السيدة لويزا ؟

فاستغربت المرأة ذلك منه وقالت : نعم

— الا تزالين صاحبة فندق الحصان الابيض ؟

— نعم

— اننا سنأتي غدًا ونـنزل ضيوفاً عندك فهيئي لنا فرشتين

احداهما للقائد والثاني لي واعدّي لنا فطوراً فاخراً

— ولكن ليس لدي ما تطلب وعائلتي كبيرة وما عندي سوى الضروري

— ماذا تقولين ؟ لا تحاولي مخادعتي . ان عندك خمس غرف مفروشة وخمسة اسرّة كبيرة ونحن لا نحتاج الى اكثر من اثنين منها فاحفظيهما لنا . هذا ونعلم انك بارعة في صنع العجة مع الجمبون وطبخ الافراخ طبخاً فاخراً . فلا تسهي عن اعداد هذين الشكلين يوم قدومنا واعلمي ان الالمان منخفضو الجانب مع من يطيعهم ولكن الويل لمن يخالف لهم أمراً او يحاول خداعهم

اما صاحبة الفندق فقالت بنفسها : لا شك ان هؤلاء البوش سحرة فهم يعرفون كل شيء ولا مناص لي من ايديهم . ثم اجابته قائلة : كل شيء سيكون حاضراً نهار غد

— وكيف حال العفريت ؟

— العفريت وماذا تعني بهذا الاسم ؟

— الجحش الصغير الذي يجرّ تلك العجلة الصغيرة وطالما احبّ ضيوفك مداعبته قبل الحرب

— فلم تشك حينئذٍ السيدة لويزا ان الالمان سحرة او شياطين يعرفون الخفايا واستعانت من شرهم في نفسها قائلة : اعوذ بالله من شرّ هؤلاء المردة فانهم من اخبث الشياطين . وقالت للضابط مرتعدة : انه بخير ولم يزل عندي

— فاذاً سيأتي غداً احد محبيه ليراه

وبعد هذه الكلمات الاخيرة ابتعد الضابط وفرسانه مطلقين لخيلهم العنان

*

انقضى ذلك النهار بسكينة وهدوء وجمع شيخ القرية سكانها واعلمهم بمطاليب الالمان الباهظة وقال: علينا ان نهيّىء لهم هذه الاعانة ان لم نزد ان ندفع عشرة اضعافها وتنهب قريتنا فتضحي قاعاً صفصفاً . لان البوش يعرفون ثروة كل منا وليس يمكننا ان نخفي عنهم شيئاً

فقال شيخ من الحضور : من الذي اخبرهم عن احوالنا بصورة مدققة كهذه ؟ كأنهم ولجوا الى اعماق بيوتنا وتفقدوا اقبيتنا وخزائننا

— ان ذلك مما يفوق العقل ويقضي بالعجب

وعند أصيل ذلك اليوم سمع دوي المدافع في تلك الارجاء وصوت البنادق المتتابع وكان صدى الرشاشات قد افعم قلوب الاهلين جزعاً لمعركة هائلة قد اضطرمت نيرانها حوالي قريتهم لان الفرنسيين عادوا فهاجموا اعداءهم وكان الالمان قد دخلوا القرية من جهة الشمال لكن الجنود الفرنسيين طاردوهم من الجنوب فحدث قتال عنيف في الشوارع والازقة وكل بيت من بيوت القرية احتله واخلاه كلا الفريقين . وكانت القنابل المختلفة تنصب على تلك القرية من كل ناحية . لكن قلة عدد الفرنسيين بالنسبة الى خصومهم اضطرتهم الى التقهقر فانسحبوا من القرية فاصبحت حينئذٍ

بيد الالمان . وكانت خسائر هؤلاء فادحة وقد قتل من ضباطهم عدد عظيم وجرح قائدهم جروحاً بليغة مميتة فاتي به الى فندق الحصان الابيض . ولما دخلوا به الفندق رأته العجوز لويزا محمولاً على النعش ومجتازاً به الى البهو فامتقع لونها وصاحت مرتعشة : هذا جان فانبول ثم اجفلت مذعورة

اجل ان ذلك الشاب اللطيف المعشر الحيي المحسن الذي اقام في فندقها شهراً لم يكن سوى ضابط الماني وجاسوس ماكر . اما اسمه البلجكي فكان مستعاراً ولم تكن حشمته واتضاعه وسائر تلك الفضائل الا رياء وتصنعاً جاء متظاهراً بجمع الاعشاب الطبية وهو مخاتل ومخادع وشر جاسوس قصده الحقيقي ان يرسم مضايق الارغون وما حواليها من القرى وقد توفق الى معرفة ثروة كل شخص . وتلك اللوائح التي كتبها والمعلومات التي اقتنصها من افواه الفلاحين السذج برنانه كانت بين ايدي تابعيه من الضباط وهو الذي بعث الملازم الآنف الذكر الى القرية ولقنه تلك التعليمات الضافية التي استعان بها هذا على ارهاب اهلها وتمكن من ان يخلص منهم الاعانة المنوه بها

كان قد بقي في تلك النفس الدنيئة شيء من الحياء فلم يجسر على دخول القرية بنفسه وقد غش اهلها بسهولة وموه عليهم

اما السيدة لويزا فلما هدأ روعها عادت الى البهو فوجدت الجاسوس قد اسلم الروح وهكذا حل العقاب بهذا المرائي الدنيء الاخلاق في نفس المحل الذي جرت فيه مآثره الاثيمة

المرأة الثرثارة

المرأة الثرثارة

بينما كان فلاح روسي يحرث حقله يوماً وجد كنزاً فجاء به الى بيته وكان له امرأة ثرثارة فقال لها :

ان الله بعث الينا الغنى من حيث لا ندري فاين نخبئ هذا الكنز

قالت : اجعل له حفرة في ارض الغرفة

— أصبت شاكلة الصواب . ففي هذا المحل لا يشعر احد بوجوده . وانت يا امرأة لا تفوهي ببنت شفة في هذا الموضوع لان مولانا — وكل له مولى في روسية — اذا شعر به اغتصبه منا لا محالة

— كن آمن السرب يا صاح ولا تخش شراً . انما ارغب اليك ان تشتري لي ثوباً جديداً

— لا بل ثوبين ونطاقاً من حرير ونقاباً ذا اهداب حمراء

ثم خرجت المرأة لتستقي ماء من العين وبقي زوجها وحده فشرع يفكر قائلاً : لم ترزق امرأتي نصيباً وافراً من الذكاء ولسانها سريع الحركة في فيها . فخير لي ان اخرج الكنز من مخبأه واجعله تحت عرمة الحنطة في الانبار . ففعل كما جال في فكره . ثم سوّى ارض الكوخ لكيلا تشعر امرأته بذلك التغيير

اما هذه فحين وصولها الى العين لم يكن يهدأ لها بال حتى قصت على جارة لها ان زوجها سيهدي اليها ثوبين ونطاقاً من حرير ونقاباً ذا اهداب حمراء . وخاضت في هذا الموضوع كثيراً حتى باحت

بالسر واخبرتها بالعثور على الكنز ثم اردفت كلامها قائلة : ارجوك ان تحفظي هذا السر . لكن هذه المرأة شعرت بالحاجة الى التصريح فاقتدت بها . ولما رجعت المرأة قال لها زوجها برزانة : سمعت ان السمك قد كثر هذه الايام في الغابة فسنذهب صباح غدٍ لنصطاد شيئاً منه

— ماذا تقول ؟ ومن اين السمك للغابة ؟

— لا ريب في ما اقول . سوف ترين

— لم أرَ ولم اسمع عمري شيئاً كهذا !

وفي صباح اليوم الثاني قام الرجل قبل انبثاق الفجر فأخذ سمكاً كان خبأه في سلة ثم سار الى دكان حلواني فاشترى منه كمية من اللوزينج وسار توًّا الى الغاب . وفيما هو سائر صادف ارنباً نائماً فقتله واحتمله . وبعد ان اقام مدة ما في الغاب آب الى البيت قبل ان تستيقظ امرأته وبعد ان فطرا ذهبا معاً الى الغاب ولم يكن الا هنيهة بعد وصولهما اليها حتى وجدت المرأة سمكة ثم سمكة ثم أخرى . ولم تكن ذاقت قبلًا لذة الصيد ولا حضرت قصفاً كهذا فملأت بهذه الاسماك منجنها . وفيما هما راجعان من الغاب صادفا شجرة كمثرى قد تدلى على اغصانها اقراص لوزينج فقالت ما رأيت كاليوم يا رجل . أترى ؟ على هذه الشجرة أقراص لوزينج !

— هذا طبيعي وليس فيه ما يدعو الى العجب : أمطرت السماء في الليل لوزينجاً فعلق بعضه على هذه الشجرة واما الباقي فقد اكله المارّون . ثم اتبعا سيرهما نحو القرية الى ان مرّا بساقية فقال لها الرجل :

الزمي مكانك وانتظريني قليلاً ففي هـذا الصباح مددت شبكتي هنا ولعله علق بهـا شيء ثم سحب الشبكة فوجـد فيهـا الارنب فقالت :

لله هذا اليوم كم ارى فيـه من الايات وهـذا منتهى العجب أيخرج من الماء ارنب ؟

— أفٍّ لك ما هذا الخرق ! الا يوجد في الماء جرذان ولماذا لا يوجد فيه ارانب . ثم رجعا الى البيت وذهبت المرأة الى جارتها لتحضر شيئاً كي تهيء العشاء . وبقيت غائبة وقتاً طويلاً . ولا ريب انها قصت هنالك ما رأته في النهار وفي اليوم التالي قالت لزوجها : سمع كاني بشيء حدث في القرية . الا تسمع هذا الصراخ ؟ فاجابها : اني اعلم ما هذا : سرق مولانا نقانق اللحام فتجمع عليه اهل القرية واشبعوه ضرباً فقالت :

نعما فعلوا

وفي احد الايام دُعي المزارع الى قصر سيده فسأله هـذا عما يتحدث به وقال له : اصدقني الخبر الذي اسمعه عنك ، قيل لي انك قد وجدت كنزاً فلم يشأ الرجل الاقرار به بل حلف الايمان المغلظة وانكر وجود الكنز مثبتاً ان هذه الاخبار كذب ومحض اختلاق

فقال السيد : لا تحاول الانكار ان امرأتك باحت بكل شيء

— وهل يصدق المجنون يا سيدي ويكذب العاقل . انها ورأسك خولطت في عقلها . فاستدعيت المرأة في الحال الى القصر . فصاح بها السيد

متهـدداً : قولي الحقيقـة والا امرت بجلدك . فاجابت المرأة مرتعدة :

لست انطق الا بالصدق . قد وجد زوجي هذا كنزاً وخبأه في حفرة في ارض الكوخ

— متى كان ذلك ؟

— عشية اليوم الذي ذهبنا فيه الى الغاب لصيد السمك

— ما تقولين ؟

— الحق يا سيدي . وكان ذلك في اليوم الذي امطرتنا السماء لوزينجاً وقد جمعنا منه سلة . ونحن راجعان اصطاد زوجي ارنباً من الساقية

— هل خولط في عقلك يا امرأة ؟ فانت كاذبة

— لا يا مولاي . وكان ذلك قبل اليوم الذي ضربك فيه أهل القرية لانك سرقت نقانق اللحام

فبلغ الغيظ من صاحب القصر معظمه لـدى سماعه هـذه التفاهات وهمّ بضرب المرأة لكن زوجها توسط بينهما وشفع بها عنده قائلاً :

قد رأيت يا مولاي رأي عيان وسمعت باذنيك فلم يبق مجال للشك انها حمقاء مجنونة فقال المولى :

تأكدت الآن انها اختلقت خبر الكنز كما اختلقت ما بقي

— اجل مولاي

— انني ارثي لحالك واتأسف لوجودك مع امرأة كهذه

— ليس في اليد حيلة يا سيدي وما لهذا الداء غير الصبر

— انت رجل طيب العنصر فاليك هذا الدينار تعويضاً عما الم بك من الازعاج

— شكراً لك يا مولاي والف شكر

وهكذا احتفظ ذلك الفلاح المحتال بكنزه ولم يشاركه فيه احد وحلف ايماناً محرّجة انهُ لن يعود يبوح بسرّ الى امرأة

الذئب الازرق

الذئب الازرق

كاد الامن يرجع الى نصابه وينقضي زمان الرعبة ويتقلص ظل الاستبداد الذي كان مخيماً فوق فرنسة في اواخر الجيل الثامن عشر

ففي ليلة من ليالي ايلول سنة ١٧٩٤ تفقد يوسف فيليوت الطحان مساء باعتناء زائد زوايا بيته وتأكد بنفسه ان جميع النوافذ مقفلة اقفالاً محكماً وان الابواب قد اسقطت مزاليجها ورجع فجلس على كرسيه فاحدق به واليه سائر اعضاء اسرته فقال لهم :

لدي خبر عظيم الاهمية اريد ان انبئكم به وهو ان الاب لمبر سيمر بارجائنا متنكراً بلبس دوّار . فان كنتم جميعاً رصينين يمكننا ان نسمع القداس ههنا الاحد القادم . ولا خوف علينا من جار يخون . إنما « الذئب الازرق » لا يزال لنا بالمرصاد وقد جاء في هذا النهار واشترى اكياس شعير دفع ثمنها اوراقاً مالية رديئة وهو الذي وشى بثلاثة من كهنتنا الغيورين الافاضل فحكم عليهم بالاعدام

ان الاعدام بالمقصلة قد الغي . على ان طرق الاذية متشعبة والوشاية لم يكسد سوقها والاضطهادات الشديدة متواصلة فلا يجسر الا بعض الكهنة المشاقين على اقامة الصلوات في الكنائس

المهجورة لان المسيحيين المحافظين على وديعة الايمان لا يعتبرونهم رعاة شرعيين بل ضالين عن جادة الحقيقة ومُضلّين. انكم تعرفون هذه الاشياء حق المعرفة وتعرفون ايضاً ان « الذئب الازرق » يحدث نفسه بشيء ما ويراقب حركاتنا وسكناتنا وينظر الى منزلنا بعين الخائن الواشي. والاب لبر في فيرين عند بيلون وسيقدم علينا متنكراً ويخبرنا عن مجيئه بورقة يضعها في جذع سنديانة الى جانب السياج عند المفرق. ولكيلا تنبه الافكار تذهب روزا الى ذلك المكان فتلعب وتجمع حشيشاً ومتى خلا لها الجو تأخذ البطاقة من موضعها. وقد جعلتُ حجراً كبيراً الى جانب السنديانة حتى اذا صعدت عليه تمكنت من الوصول الى قعر الجذع دون مشقة

فقال له ابنه البكر وكان جسيماً قوياً

ان روزا صغيرة ترتاع لأدنى شيء. فاذا ادركها الذئب الازرق فكيف تدافع عن نفسها ؟

— لا يطرق خاطر الذئب الازرق ان ابنة في سنّ روزا عمرها ست سنوات مطلعة على اعمالنا وتكل اليها امر مساعدتنا في ما عزمنا عليه. هل تخافين من الذئب الازرق يا روزا ؟

— لا يا ابتاه. انه غير مؤذٍ وقد اعطاني يوماً طاقة زهور كان قد جناها من الجبل

فقالت كلودين وهي ابنة فيليوت وعمرها ست عشرة سنة : لقد صدقت ان الذئب الازرق الذي يظهر البغضاء لجميع الناس لا يمسك نفسه عن التبسم متى صادف روزا وعلى ما اظن انه لا يلحق

بها اذى

فقال الطحان : ترون ان ما نطقت به الصواب . عليك يا بنية ان تذهبي مرتين في النهار وتفحصي قعر الشجرة واياك ان يعلم بذلك احد

فقالت ربة البيت : ارى في تقليد هذه الابنة الصغيرة مهمة كهذه خطراً عظيماً . ومن كان في سنها لا يحسب لقدور حساباً ويسهل على الاريب الداهية العارف بمطاوي الامور استخراج الحقيقة من فم الصغار لانهم لا يعرفون الغش . . .

فاجاب الطحان : ولانها لا تعرف الغش والخداع فيحرسها الله . ان روزا لافضل رسول لهذه المهمة . ثم اردف كلامه قائلاً وهو يتناول سبحة علقت على الحائط تحت صورة العذراء : لدينا ما يحرسها ويحرسنا جميعاً . فلنتلُ هذه المسبحة

وبعد ان اتموا تلاوة المسبحة حان وقت النوم فقالت السيدة فيليوت وهي تستر ما بقي من الجمر في الموقدة : هلموا بنا الى النوم ولتحرسنا الملائكة الاخيار وغداً يصير ما يشاء الرب

***

مضى يومان وروزا ترود في جوار الشجرة منتظرة خلو المكان من الناس تفتقد جذع الشجرة . غير ان الذئب الازرق كان يظهر دائماً من بعض الزوايا وقد شوهد ابن بيلون الاصغر مارًّا بتلك الارجاء . ولا ريب ان البطاقة كانت في محلها

بلغ الحزن معظمه في قلوب سكان البيت واشفقوا من ان

يقدم الكاهن على غير اهبة فيداهمه الذئب الازرق

وكان هذا لا يفارق مشارف الناحية معتقلًا بندقيته ومتزملًا بثوب ازرق تضرب الرياح لحيته في الافاق فيخالها الناظر بعض الادغال ولاجلها لقبه الناس بالذئب وكان اذا اعياه الوقوف في محله فارقه الى المروج ومنها الى الحرج لا يفتأ يرسل بازي الطرف الى الابناء والبيوت والادغال

وعيل صبر الطحان فقال لروزا : ضعي بعد ظهر اليوم قليلًا من الحشيش في نطاقك وقودي العنزة والجدي لاعبة الى السنديانة وخذي البطاقة منها سواء رأيت الذئب الازرق هنالك ام لم تريه ولا شك ان هذا الشقي مأجور على تجسسه ايانا

فذهبت روزا بعد الظهر الى المرج وملأت نطاقها حشيشاً جعلت تحته المسبحة التي كانت معلقة على الحائط بعد ان قالت لاهل البيت :

قلتم ان هذه المسبحة سلاح يدافع به المؤمن عن نفسه وهي مسبحة امي . فاعيروني اياها لانني اشعر ببعض الخوف . فالذئب الازرق قد مرّ بنا منذ هنيهة . أعيروني المسبحة ولا تخشوا من ان اضيعها

فاخذتها وجعلتها تحت الحشيش المزهر وكانت تحس بوجود حبوبها الخشنة الضخمة فيزول بعض ما بها من الجزع . ولم يكن الذئب الازرق هنالك فتخطت المرج الى الشجرة ورأت ان الحجر كبير يمكنها من الوصول الى اسفل الثقب فصعدت عليه حالًا

وضربت بيدها الى داخل الجذع فاخرجت منهُ الورقة

وللحال سمعت صوتاً جافياً خشن اللهجة يقول : اعطني هـذه يا بنيَّة . فالتفتت وقلبها يكاد يطير فرقاً فرأت الذئب الازرق وراءها

فقالت لهُ وصوتها يتهدَّج من الخوف : انها ليست لك . فاجابها : اعلم ذلك ولم يخطـأ ظني . قد اختبأت في هذا الدغل منتظراً ما سيحدث اذ يكلف هؤلاء الاغرار ولداً كهذه قضاء مثل هذه المهمات ردءاً لرائد الظن . اعطني هذه الرسالة

— كلا . لست اعطيكها

— فاذا سآخذها قسراً يا حبيبتي

فازداد اضطراب الابنة وسقط الحشيش من نطاقهـا فوقعت المسبحة على الأُشنة . فقال : هه . هذه مسبحة . ما اسخف عقول هؤلاء القوم وأشطهم عن الصواب في وضعهم هذه المسبحـة بين يدي ابنة صغيرة كهذه

فقالت روزا : قد اخذت هذه المسبحة للدفاع عن نفسي

فقال : للدفاع عن نفسك ؟ حقاً انها لنعم السلاح . ولكن مـا هذا الصليب ؟ لا . قد غرّتني عيناي . . . وهذه الحروف : ر . س . وورق الحلبلاب المحفورة على الخشب . أنّى لك هذه المسبحة يا بنيَّة

— هذه مسبحة امي المتوفاة وجميع اهلي قد توفوا واما امرأة فيليوت فليست الّا مربيتي . ان رجالًا اشراراً اردياء قتـلوا والدي واما والدتي فجاءت الى هـذه الانحاء واقامت مدة ثم انتقلت الى رحمة الله تعالى وصعدت الى السماء حيث تتمتع برؤية الله ولذلك

انا مسرورة

— ما اسم والدتك ؟ — روزا

— وما اسمها الثاني اليس سوبيري ؟

— نعم نعم هل تعرفها ؟

فقال في نفسهِ : لم يخب ظني وما للريب عندي من محلّ فالمشابهة والاسم دليلان قويان . ولذلك قد أحببت هذه الصغيرة . فهي ابنة اختي . مسكينة انتِ يا روزا . ألستُ انا الذي حفر لكِ هذا الصليب لما أضعتِ صليب سبحتك . . . لقد كانت تقية هي اما انا . . . آه ما احيلى هذه الذكرى وما الذّ وقعها في قلبي . ما اعجب الانقلاب الذي صرتُ اليه . . . لاجل شذرات ذهبية انكرت كل شيء . . انكرت كل شيء وليس في استطاعتي الدهر ان أؤمن بالله . ثم التفت الى روزا قائلًا بصوت عالٍ : هل لكِ يا روزا ان تعانقيني

— بطيبة خاطر . ان على شاربيك لدموعاً . لا تبكين فاني احبك كثيراً ولا اصدق ما يقال عنك انك شرير . لا تأخذ الورقة مني واتركني اذهب عاجلًا

— لا . لا اخذ منك الورقة بل أعطيك ورقةً أخرى . . .

*

وما اشد ما كان تعجب الطحان لما اطلع على البطاقة الثانية التي خطها الذئب الازرق وهذا نصها :

سيدي — يمكنك ولا بأس عليك ان تضيف جميع الكهنة الغير

المستحلفين الذين يقعون لديك موقع الرضى . اذا استحسنت ان اقدم لهم اوراق امان او جوازات وكان ذلك في امكاني فعلت . لست اشاطرك آراءك الدينية والسياسية ولن اصير صديقك ابداً . انما لايجدر بي ان ابادئك بالاذية وابنة اختي روزا قد لاقت منك امًّا واباً لا حاجة الى ايضاحات اوفر فايذن لي فقط ان ابعث اليك عشرة الاف فرنك وهذه الدراهم ورثتها عن امي فلا خوف على روزا ان تتصرف بها متى كبرت كما شاءت الامضاء

لويس سوبيري الملقب بالذئب الازرق

فقال احد الحضور لعل هذا وهق نُصب لنا . فقال الطحان : مهما افترض لا يبعد وقوعه من هؤلاء القوم

فقالت ربة المنزل : وكل اعجوبة ممكنة بواسطة مريم العذراء

ثم استفسروا طويلاً روزا واستفهموا منها . واذ شاموا من اقوالها الاطمئنان استقبلوا الاب لمبر بكامل الترحاب فمكث الكاهن بين ظهرانيهم ثمانية ايام اقام في خلالها الذبيحة الالهية وعمد وبارك اكاليل الزواج واسبغ على سكان تلك الناحية البركات السماوية

وحدث انهُ سمع في بعض الاحيان وقع اقدام امام البيت وقت القداس او تلاوة المسبحة فكان الطحان يقول : هذا الذئب الازرق . فيجيب الكاهن : فلنصلِّ لاجله

وكان الذئب الازرق متى شاهد روزا يعانقها ويسألها فتجيبه البنت مطمئنة ان الكاهن يتلو صلوات طويلة ولاجلك ايضاً وفي مساء السبت قالت لهُ : ألا تعلم ايها الذئب الازرق سيذهب

الكاهن هذه الليلة الى المقبرة وحده وليس بخائف

— ولماذا يذهب الى هنالك ؟

— سمعت انهُ يريد ان يبارك قبور الذين دفنوا في غيابه

قارب منتصف الليل فشوهد شبح ينسل بين اشجار السرو والشربين في المقبرة وكان ذلك الشيخ الكاهن فشرع يبارك قبور الذين دفنوا دفناً مدنياً وكان الذئب الازرق كامناً وراء اكمة يشاهده يفعل . فماذا حدث في طيات قلبه منذ ثمانية ايام ؟ لا يعلم ذلك الا هو نفسه والله تعالى . ولما بلغ الكاهن الى قبر كُتب عليهِ « روزا سوبيري » انطرح على قدميه رجل قائلاً :

« باركني يا أبتِ انني اخطأت . . . » وبقي جاثياً على الارض طويلاً وقد جذبهُ الكاهن اليه واسند رأسه الى صدره . رأس ذلك الرجل الذي كان قبل ثمانية ايام يتوق الى قتله . واقر لويس سوبيري وكيل الحكومة ومضطهد خدام البيعة بخطاياه المثقلة حياته السالفة

وعند الصباح شوهد الذئب الازرق جاثياً مع جميع المؤمنين يسمع القداس الالهي وبين يديه سلاح روزا اي المسبحة المباركة التي كانت سبب اهتدائهِ وتوبته وهو يصلي بتقوى وخشوع عظيمين

اشارة الصليب

اشارة الصليب

في سنة ١٧٩٤ كان يقيم في قرية قريبة من بوبريو Beaupréau من اعمال فرنسة رجل فاضل يدعى يوسف مانيان وكان رب اسرة كبيرة قد ناهز الستين من عمره ولم يزل اخضر العود نشطاً يتعاطى اعماله اليومية بجد واجتهاد يندر وجودهما فيمن بلغ سنه . ولم يكن له اهتمام سوى ان يخلّد في سلالته تقاليدها الشريفة . رزقه الله اثني عشر ولداً ثماني بنات واربعة صبيان قتل منهم ثلاثة في الحرب الاهلية التي استعرت آنئذٍ في فرنسة وبقي اصغرهم مقيماً بعدهم في ظل أبويه وهو الوارث الوحيد الذي ينتقل به الى اعقابه اسم اسرته . وقد ناهز السادسة عشرة من سنه لكنه خوّل من قوة البنية واشتداد الاعضاء ما يعوض عن تقصير السنين . وهو مع ذلك معتدل القامة رشيقها جميل المحيا يشعر جماله بنبالة اصله ويذكّر الراني باجداده القدماء الذين قد تشاهد سيماؤهم احياناً . له شعر طويل مرسل على كتفيه وعينان براقتان زرقاوان ومبسم لطيف واسنان متساوية وأنصع بياضاً من العاج . وان لم يكن قد خاض هذا الفتى غمرات الحرب فما ذلك لجبن منه او لخور قلبه ولكن لان أباه كان في شدة الاحتياج الى قوة ساعديه وهذا الفكر وحده كفاه لان يثبط عزمه ويقعده عن الاقتداء باخوته وغيرهم من ابناء وطنه في زمن حمي فيه وطيس الحرب والوطن في

حاجة قصوى الى جميع بنيه لرد هجمات الاعداء وغزواتهم المتعددة

ان ذلك لم يصده عن بذل نفسه في سبيل الخير العام عند الاقتضاء. وقد تفرد في تلك الانحاء بتجسس اخبار الاعداء ومراقبة احوالهم فأتى بنتائج حسنة ومنافع جمة اكتسبت له محبة الاهلين وشكرهم . وقد خوّل خفة السنجاب فكان يجوب في الليلة الواحدة عشرين ميلاً مزدلفاً بين الرتم ومراقباً بانتباه مسير العدو . وكان له حذاقة عجيبة في اقتصاص الاثر حتى لقبه بعضهم : « الرجل الارنب » مبالغة في ذلك عندهم

اما ابوه فكان على جانب عظيم من الصلاح والحلم والتدين محبًّا للضعيف عطوفاً على البائس وابن السبيل . لا يطرق احد باب داره ويرجع خائباً . وكان منزله ملتقى القصاد في تلك الاطراف يجد الضيف فيه من اللطف والبشاشة ما ينسيه مشقة السفر ومؤونة وافرة لمتابعة سفره

واليك الان ايها القارئ الكريم مأساة بطلاها يوسف مانيان وولده جان جرت حوادثها في احد ايام آب . وهي دليل ساطع على رقة شعور المسيحيين وشرف الدين المسيحي

*

كان الجو مشرباً رائحة كبريت والغيوم متلبدة في كبد السماء تحجب وجه القبة الزرقاء . وكان ذلك اليوم يبدو مظلماً كأنه يوم اعصار عظيم وكانت كل الظواهر الجوية تدل على دنو العاصفة

فالويل لمن لا يربأ بنفسه ويختبئ في ملجأ امين

ولكن رغماً من كل هـذه الدلائل خاطر الفتى جـان بنفسه وذهب بقطيعه ليرعاه في مرج بين قريته ومدينة بوبريو فجلس الى جذع شجرة واخذ يفكر مرتبتاً على راس كلب ضخم الجثـة هو رفيقه الوحيد في خلوته وقال في نفسه وهو ينظر الى ما حوله «ما اكثر اسباب الحزن في هذه الارض التي افنتهـا الحروب الاهلية. هذه الارض التي كانت غضرة نضرة فيما سلف ليست الآن الا قاعاً صفصفاً تراكمت فيه انقاض الخراب. هذه هي اعمال جنود اعدائنا الالداء. أخلوا البلاد من السكان واحرقوا البيوت ودنسوا ونهبوا القصور الخالية واحرقوا وشتتوا الاهلين في الغابات. مـا ابعدنا عن الزمان الذي كان يسمع فيه الفلاح مغنياً ويده على محراثه والشحرور مغرداً في الادغال وها ان الطبيعة نفسها اتشحت بوشاح الحداد على هذه الاعمال»

ثم انقطع عن التأمل ونظر الى الجوّ قلقاً وكان الاعصار قريباً والرعد يقصف متتابعـاً والافق يضيء ببرق متألقاً. فصفر الشاب لكلبه وقال «هلم يا لوثر قد حان لنا ان نعود هيا اذهب واجمع القطيع». ففهم الكلب الاشارة حالاً وذهب كالسهم المارق

بينما كان الشاب يتأمل في مفاعيل الحرب المشؤومة مرّ عـلى مقربة منه جندي من الاعداء يسير واجفـاً وهو ينظر من خـلال السياج المجاور ورغماً مما اتخذه هذا من الاحتياط لاخفـاء شخصه عن كل عين لم يخف وجوده عن نظر جان الثاقب فلم يعتم ان لمحه.

فخفق قلبه لمرآه وجرى الدم سريعاً في عروقه ولمع في عينيه شرار الغضب وغلت في قلبه مراجل الحقد والاثنار لاخوته لكنه لم يحدث نفسه باستعمال عصاه لمقاتلة عدوّ شاك السلاح كهذا الجندي واتضح له ان خصمه قد ضل عن الطريق وطرق باله فكر وهو ان يصرفه عنه بالحيلة . فعمد الى عصاه فسندها الى كتفه مستعملاً اياها كبندقية يريد بذلك ان يرعب الجندي فيلجئه الى الفرار . لكن هذا لم تخف عليه حركة جان وغرّه بعد المسافة فظن العصا بندقية فهرع الى بندقيته فحشاها وصوبها الى الراعي الفتى واطلق النار فارداه قتيلاً فسقط الى الارض دون ان يُبدي صوتاً . فحشا الجندي بندقيته ثانية وهمّ بالمسير . لكن لولو ، أخذ يردد نباحه وظهرت بعد هنيهات زمرة مسلحة من الفلاحين وقبضوا فجأة على الجندي واوثقوه قبل ان يبادر الى استعمال سلاحه وقادهم الكلب الى جثة جان فوجدوه قد اسلم الروح فعملوا محملاً من اغصان الشجر وجعلوا عليه الراعي المسكين ثم قصدوا القرية وهم يراقبون حركات الجندي الأسير

ولما سمع يوسف مانيسان عواء لولو المحزن هرع الى مدخل القرية ليرى ما الخبر . ولكن يا لعظم حزنه ! وجد ولده ذلك الذي كان له المساعد الوحيد وملجأ أمله وركن اسرته بين يديه جثة هامدة لا حراك لها مصاباً بسلاح عدوه في نفس قريته . فصاح صياح الواله بصوت المتضعضع القانط قائلاً :

قد أخطأتم ! . . . ان ولدي لم يزل حيًّا أليس كذا

يا جان ؟ . . ارادوا ان يوهموني ان . . . ولكن أجبني يا حبيبي . . . قل لي انك لم تزل متأهباً للجوب في الادغال . أجبني . . . أواه ! اني ارى دماً . ما هذا الدم ؟ هل هو مجروح . قد توفي . وَا أسفاه قد صح ما قيل لي . ان ولدي قد توفي . من قتله ؟ ماذا فعل حبيبي جان ليقتل قتلاً ؟ شلّت يمينك يا قتول قد ذهبت بحياة شهم بريء ولتحرق بنار الرب العادل كما تحرق قلبي الآن . . . جان . جان . فقدتك يا ولدي وسندي الوحيد . لا كان هذا اليوم من الدهر . . . آه ما اشد حزني ! . . .

وكان الحاضرون يسمعون هذا الكلام متأثرين ولا يجسرون على ابداء ملاحظة احتراماً لمصيبة ذلك الشيخ . ثم انتصب فجأة بعد ان كفكف دمعه واستفهم عما جرى . ولما بلغه ان القاتل في قبضة اصدقائه لمعت في عينيه شرارة الانتقام وصرخ قائلاً :

لم يسمح الله ان يذهب دم ابني الحبيب هدراً فسوف انتقم له شرّ انتقام فاطلب ان احضر انا بنفسي معاقبة الجاني

*

بعد ان قال ذلك أُدخل البيت حيث كانت جثة ولده . فقضى عنده الليل وجمهور من اهل القرية يصلون لراحة نفس القتيل وكانت الزوبعة قد بلغت اشدّها في ذلك الليل الدامس وكان المطر يسقط مدراراً

في اليوم الثاني اجتمع وجوه القرية واقاموا مجلساً لينظروا في أمر الجندي القاتل وكان هذا المجلس مؤلفاً من بضعة رجال

متقدمين في السن قد بدت على وجوههم سيماء التردد وزاد عدد الحاضرين في ذلك المكان اذ جيء بالمذنب مقيداً وبوشر حالاً استنطاقه. فقال له الرئيس:

— مَن امرك بارتكاب الجناية المتهم بها ؟

فاجاب المتهم :

— لم يأمرني احد بذلك

— فاذاً قتلته حبًا بالقتل فقط

— لا. انما دافعت عن نفسي

— اشرح لنا واقعة الحال

— رأيت رجلًا كامناً ومصوباً اليّ بندقيته فاطلقت النار عليه وكنت اجهل انه راعٍ أعزل لا سلاح له الا عصاه . ولذلك اقسم لك بشرفي العسكري انني نادم على فعلتي هذه. ولكن قد سبق السيف العذل ولا مردّ لما فات فانتم وما بدا لكم

— كفى ...

يظهر مما سبق ان هذا الاستنطاق موجز للغاية . وفي تلك الايام كانوا يحبون الاختصار في كل شيء. فانزوى اعضاء ذلك المجلس في اقصى المكان للمفاوضة. ووقعوا في حيص بيص لجهلهم الامور المتعلقة بالجنايات وطريقة تطبيق العقوبات. وزاد الطين بلة لهجة الجندي الصادقة

ولما رأى الرئيس ذلك تكلم قائلًا : هل يمكننا ان نحكم بالاعدام على رجل دافع عن نفسه وهو على ظنه في خطر الموت.

ومن جهة اخرى لا يليق بنا ان نبور قاتل شاب عزيز لدينا وكل منا يحبه كولده . هذا فضلاً عن ان حزن أبيه يمزق أحشاءنا فكيف نحكم بالبراءة . وان حكمنا بالقتل نعرض بانفسنا لاهانة الله . فارى من الحكمة ان ندفع القاتل الى يوسف مانيان وهو يعمل ما يحسن في عينيه . ماذا تقولون ؟

فقابل اعضاء المجلس قول الرئيس بالرضى التام . لانهم رأوا بذلك سبيلاً لحلّ مشكل عويص وازالة المسؤولية عن عاتقهم

فبعثوا للحال يستدعون ابا القتيل . وما كان اعظم دهشة مانيان لما سمع بهذا النبأ فقال : اصحيح ما سمعته ام انا في حلم

— الامر لك فافعل ما يوحيه اليه ضميرك

— متى يكون ذلك ؟

— الساعة اذ شئت

— فاذاً عليّ بهذا الرجل . ثم أشار الى شابين من اخدان ابنه قائلاً : أحضرا لي بندقية واذهبا حالاً فاحفرا قبراً يواري القاتل . وفي أقل من نصف ساعة كان الجندي واقفاً الى جانب الحفرة حاسراً عن رأسه موثق اليدين ينتظر الموت . فسأله يوسف مانيان :

— ما اسمك

— بطرس اوليه

— هل لك أهل ؟

— توفيت امي قبل ان اعرفها

— وابوك ؟

— هو شيخ هرم ومريض

— وهل له من معين سواك

— ليس له غيري

— واذا فقدك فمن يعزيه؟

— لا معزّي له سواي

فنكس يوسف رأسه واخذ يفكر وكان اعصارًا قوياً ثار في نفسه. فالطبيعة تطلب الثأر لابنه ووارثه الوحيد والنعمة تطلب العمل بوصية المعلم الالهي القائل : « اغفروا لمن أخطأ وأساء إليكم »

ولربما كان جاء بالصفح عنه لولا ان لؤلؤا عوى عواء منكرًا في تلك الساعة . فانتفض سيده واقفاً وقبض على البندقية التي احضرت له وقال بصوت قويّ :

— «من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ» . استعملت بندقية لقتل ولدي وببندقية تقتل . فهذه شريعة الحقود ستنفذ بك

— افعل ما شئت فقط مُرْ بحلّ وثاقي

— ولماذا ؟

— لم اطلب ذلك قصد الهرب ولكن لأموت موت الجنود اذ لم اسقط في ساحة القتال

— ان ما تطلبه مقدس ايها الفتى . حلّوا وثاقه

ولما حُلّ وثاقه أخرج بطرس اوليه من جيبه الداخلي رزمة مختومة وقدمها ليوسف قائلًا : اليك هذه الرزمة . قد سلمها الي مسكين وفيها رسالة ربما كان فيها بعض الافادة

فاخذ يوسف الزمة وصوب البندقية الى الجندي الواقف الناظر الى السماء وسأله :

— هل انت مستعد لملاقاة الديان الرهيب ؟

— فاجابه بطرس مهلاً . ثم رسم على ذاته بتمهل إشارة الصليب المقدس متلفظاً باسم لم يسمعه احد . ولما رآه الحضور راسماً إشارة الصليب الكريم بعظمة وخشوع دهشوا دهشاً عظيماً . وسأله مانيان : وهل تؤمن بالله . فاجابه الجندي :

— انا اؤمن بالمسيح الذي يراني ويسمعني وسيقبلني عن قريب في سمائه

واذ تلفظ بهذه الكلمات حدث انقلاب فجائي في نفوس الحاضرين واطلق ابو القتيل بندقيته في الجوّ قائلاً : قد صفحت عنك ايها الفتى ولا اريد أبداً ان اقتل خليقة معمدة

ثم رمى بسلاحه بعيداً عنه وقال لبطرس الذي اعترته الدهشة البس ثيابك وابتعد عن هذه الحفرة التي لم تعد لك . ان الصليب المقدس الذي قد فدى العالم خلصك اليوم ثانية . وهذه يدي فاني مصافحك مصافحة الاخلاص

فأثر هذا الانقلاب تأثيراً شديداً في نفس بطرس وقبض بكلتا يديه على يد يوسف وضغط عليها اظهاراً لشكره . فقال له يوسف : والان ارد اليك الزمة التي اعطيتنيها فاذا تحتوي ؟

— تحتوي على مسبحة وايقونة وذبالة شعر ولها حكاية ساقصها عليك بوجيز العبارة لعلك تهديني الى ما فيه المنفعة

– تكلم

– في ٢٩ حزيران من سنة ١٧٩٣ كنت مع بعض الجنود النظاميين متعقبين آثار المتطوعين الذين أخلوا مدينة ننت . فرأيت واحداً منهم قد سقط قتيلاً وهو يعين احد رفقائه . فاسرعت اليه فقال وقد رفع رأسه متثاقلاً : رحماك لا تضن علي بمعروف – فقلت : وما تريد ان أفعل ؟

فقال : خذ سبحة وايقونة تجدهما في جيبي واقطع ذبالة من شعري وعدني انك تسلمها جميعاً الى مرغريت مانيان او تبعث بها اليها

فقلت : حباً وكرامة واين هي مقيمة الآن ؟

قال : في كايل . . . ولم يتم هذه الكلمة حتى اسلم الروح وهو بين ذراعي

فصاح يوسف وهو يضم الجندي الى صدره قائلاً :

صاحب هذه الوديعة هو ولدي جاك . ليكن اسم الرب مباركاً . قد نسيت كل شيء . هلمّ بنا الى البيت . هلمّ كلمني عن ولدي . . وف تقيم عندنا عوضاً عن الفقيد ونحبك كأحد اولادنا

فاطاع يوسف وأقام في بيت مانيان الى المساء .

ولما ارخى الليل سدوله عمد الى كيسه وبندقيته وقال :

اشكركم من صميم الفؤاد على ما شئتم ان تفعلوه من الخير في سبيل سعادتي انا الذي سببت لكم حزناً عظيماً بدون ان اتعمده . لكن فرنسة تحتاج الى اولادها ليدفعوا عنها هجمات الاعداء .

المتجمهرين على الحدود. وعار علي ان انبذ صفتي الجندية واخلد الى السكينة والراحة ابان الخطر المحدق بالوطن

فاجابه يوسف : في امان الله يا صاح وقالت زوجته مرغريت :

تذكر دائماً ان اشارة الصليب حفظتك سالماً لابيك

وحينئذٍ خرج بطرس اوليه قاصداً معسكره تتجاذبه الاوهام وقبل ان تتوارى القرية عن نظره حيّا عن بعد قبتها الناطحة برأسها عنان السماء.

*

وبعد بضع سنوات توفي يوسف مانيان ودفن الى جانب عزيزه جان. اما بطرس اوليه فقد مات في موقعة مرنغو موت الابطال. وقبل ان يلفظ النفس الاخير شاهده رفاقه يرسم على ذاته اشارة الصليب الكريم بهدوٍ وتقوى

ما ثقل تلنة

ماثقل تبنة

كان رجل غنيٌ وعزيز النفس يعيش في قصر له ولا يخرج منه الا قصد المحاربة وغزو حقول مجاوريه ونهب ارزاقهم وسلب المسافرين

وبلغ منه سوء الخلق والقسوة مبلغاً عظيماً حتى انه لم يبق في قلبه شيء من العواطف البشرية سوى حبه لقرينته

وكانت هذه خودًا كاملة الاوصاف تقضي آناء الليل واطراف النهار باكبة اعمال زوجها الشريرة وطالبة له من العلي المغفرة. ورغماً مما كان يبذله قرينها من العناية بها ويوفر لها من الملذات والاسباب التي توفرها الاثرة والغناء لم يكن يطيب لتلك السيدة عيش اذ كانت رغبتها وجلّ مبتغاها توبة زوجها

ففي ليلة من ليالي الشتاء وقد ثار ثائر الاعصار وخيّل ان العناصر تضافرت على الارض وهمت بالقضاء عليها كانت تلك السيدة جالسة الى المحترق حيث تشب النار وتلتهم الوقيد التهاماً. وقد اخذت الريح تصرّ صريرًا نافخة في ابراج القصر كأنها حنقة من مصادمتها والمطر يسقط كمن افواه القرب والبرق يشق حجاب الظلماء فيخطف بلمعانه البصر وجميع الخلائق علقت تطلب ملجأً تلوذ به من هول تلك الليلة. ولم يكن سيد القصر قد آب من غزوته ولذلك استولى الاسى على قلب زوجته فشرعت تصلي

واذ ذاك قرع الباب ثم دخل خادم وابلغ سيدته ان راهبين مسكينين قد انهكهما التعب وأضرّ بهما الجوع والبرد اذ تاها في تلك البلاد الغامرة يطلبان الضيافة في القصر او قلما يكون في احدى زرائبه . فاعترى تلك السيدة الحيرة لانها تعلم من زوجها بغضاً شديداً للرهبان وكان خضوعها له عظيماً بهذا المقدار حتى انها لم تكن تجسر على عمل الخير بدون رضاه . ولكن كيف يمكنها ان ترفض طلب هذين الرجلين الفاضلين

ولما شعر الخادم بارتباكها قال : لا يكون لولاي علم بامرهما وسوف يغادراننا عند انبثاق الفجر . فقبلت بذلك واوصت الخادم ان يخفيهما في الزريبة

ولم يكد الخادم يخرج من امام سيدته حتى سمع نقر الصور ودبدبة خيول تنبئ بوصول رب القصر . ولم يعتم هذا ان دخل وبعد ان بدل شكته الملوثة بالدم بثوب من الخزّ المفرّى جلس وزوجته الى مائدة جمعت من انواع الاطعمة الفاخرة ما يقل وجوده الا على سماط الملوك . وكان عدد لا يحصى من الشموع يرسل الاشعة الصافية فتقل جيوش الظلام . وظهرت السيدة متوشحة بثوب من القطيفة الخضراء الغالية الثمن موشّى بالذهب والحجارة الكريمة . ولم تشترك بالاكل مع زوجها . وكان نور الشموع ينعكس على الالماس المكلل رأسها والعبرات تتساقط من مآقيها فيزيدها جمالاً

فسألها قرينها برقة :

— مالك لا تأكلين ؟

فلم تنبس ببنت شفة

— هل خامر فؤادك الجزع عليَّ من عواصف هذه الليلة . الا اطمئني بالاً الآن فها قد شاهدتني معافىً رغماً عن ابليس اللعين

اما هي فلم تجبه الا بسح العبرات لان بنات العين أخوات متحدات تتبع احداهن الاخرى وبعد الواحدة تأتي المئات . اما هو فلحسن حظه كان حافظاً في اعماق قلبه حبه لامرأته كمرساة الخلاص فغمه بكاؤها فقال لها :

— قضي عليَّ يا سيدتي ما الذي يحزنك وأقسم لك بسيفي ان ازيل كربتك في الحال ان قدرت على ذلك

فاجابت قائلة :

— مولاي تراني باكية لانه يوجد اناس يتضورون جوعاً بينما نحن نتمتع هنا بملاذ الحياة ويقرقفون برداً بينما نحن نتدفأ الى هذه النار . فهذا سبب حزني وانقباض صدري فلا اقوى على تناول الطعام

فقال لها زوجها :

— ولكن من الذي تعرفينه يتضور جوعاً ويقرقف برداً

— راهبان استضافاني يا مولاي وهما في الاخور

فاكفهر وجه صاحب القصر وبدت عليه سيماء الغضب فقال :

— راهبان كسولان نهمان يريدان ان يعيشا من مالي ؟ قد خاب سعيهما

— لم يطلبا يا مولاي سوى ملجأ وقليل من التبن

فنادى صاحب القصر اعوانه فصرخت امرأته منتحبة :

رحماك رحماك يا مولاي لا تطردهما . تذكر سابق وعدك

— سكني روعك . سوف يأكلان مريئاً ويشربان هنيئاً ويتدفآن ثم يسلياني فوق ذلك . وامر خدمه ان يحضروهما اليه

ولما مثلا بين يديه اضمحل ازدراؤه واستهزاؤه كما يضمحل الضباب الكثيف لدى ارتفاع حاجب الشمس . وكأنّ عاملاً داخلياً دفعه رغماً من ارادته الى القيام لهما . وتوقفت المجانة على شفتيه كافعى تتثنى وترجع الى جحرها لانه لحظ على محيّا الاسنّ من هذين الراهبين وشعره الابيض المجلّل شيخوخته كما يكلل عرق الورد الرطب جبين الشبوبية وصفاء بصره ورصانة كلامه عظمة توجب الاحترام وحلماً يجذب اليه القلوب وساطة تستولي حتى على نفس جامدة وفاسدة

فأجلسهما رب القصر الى المائدة ولزم الصمت مدة . لكن الراهب امين على رسالته فشرع يصدع بكلام الله في ذلك المكان الذي طرد منه فالجأ الى قلب ربة القصر كهيكل له

وكان رب القصر صامتاً يسمع ما يقال وينظر الى امرأته وقد ضمت يديها وسيماء الجزع في ناظريها تنظر الى هذا الرسول كما ينظر النوتي في ليلة كثرت فيها الزوابع الى المنار الذي يضيء له المرفأ وشفتاها ترددان هذه الصلاة : « رب بارك ذاك الذي يسمع »

وبعد العشاء اخذ صاحب القصر شمعة وانارها وقاد هو بنفسه ضيفيه الى احسن غرفة في قصره فرشت أحسن فرش وفيها الاسرة المذهبة وعليها الفرش الحريرية . لكن الراهبين رفضا النوم بتاتاً

عليها قائلين : لم نتعود قطّ الا النوم على التبن . ولما رأى ذلك منهما نزل هو بنفسه الى الزريبة وجاء بحمل من تبن فرشه على الارض ثم قال منتصراً على القسوة الملمة بقلبه : أبتِ أريد ان أتوب الى الله ولكن ليس من الممكن ان يغفر لي الرب كل مآثمي

فاجابه المرسل قائلاً : ان تجاوزت آثامك رمل البحر عدًّا او قطرات مياهها ونجوم السماء فالندامة تمحوها كلها ورحمة الله تغفرها ولهذا السبب لا عذر للخاطئ المنافق المصر على خطاياه

عند ذلك جثا ذلك المولى الجبار على ركبتيه واقر بخطاياه وسكب دموع الندامة غزيرةً على ذلك التبن حيث كان جاثياً

ولما زار الكرى عيون الكاهن بعد ان شكر الله تعالى على نعمه شعر كأنه امام عرش الديان الرهيب ورأى العدل الالهي ماسكاً بيده ميزان الخير والشر وقد أزمع ان يدين نفساً وهذه هي نفس صاحب القصر . وكان ابليس قد وضع بقحة المنتصر في كفة الميزان جميع ما ارتكبه من المآثم فستر الملائكة الاخيار وجوههم خجلاً وشفقة وارسلت نفس ذلك الرجل تنهداً طويلاً . واذ ذاك تقدم ملاكها الحارس ، ذلك الملاك الحليم الصبور والصديق الجميل الذي يجعل الندامة في قلبنا والدموع في اعيننا والصدقة في كفنا والصلاة على شفاهنا ، فاخذ بضعة تبنات بلّت بدموع التائب ووضعها في الكفة الاخرى فرجحتها ونجت تلك النفس

ولما كان الصباح قام ذلك الراهب من النوم فوجد الحزن مرسلاً سدوله على ذلك القصر فسأل عن السبب فقيل له : ان رب القصر قبضت نفسه في تلك الليلة ! . . .

كاس الماء

كاس الماء

عاد الكاهن الشيخ خادم رعية سان بياترو — وهي قرية تبعد بضعة اميال عن اشبيلية — عند اصيل يوم من ايام الحر سنة ١٨١٥ الى منزله الحقير حيث كانت تنتظره السنيورة مرغريتا خادمته العجوز وعمرها فوق السبعين

ومهما اعتاد النظرُ على رؤية البؤس والشقاء والفقر المدقع في طبقة الشعب الاسباني السفلى لم يكن الا لتستفز دهشته لاول وهلة شدة الاملاق السائد في مسكن ذلك الكاهن الفاضل هذا عدا ما كان يشعر به ذلك المحل من الحق برفاهية العيش فيظهر إظهاراً أتمّ تجرد الجدران من الزينة وقلة الاثاث

وكانت مرغريتا قد انجزت اعداد صُحَيْفة طعام لفيف (١) اعشاء لمولاها ولم يكن في هذا الطعام من اللفيف سوى الاسم فقط وما هو سوى فضلة الغداء جُهّز واضيف اليه من غيره لوناً وطعماً بمهارة عظمى . فتنشق الكاهن ذلك الطعام من بعيد قائلاً :

ليكن اسم الربّ مباركاً يا مرغريتا . ها إن فمي يتحلّب لرؤية هذا الطعام الشهي . ثم التفت الى رفيقه وقال له : كيف انت وصحفة من هذا الطعام . ويجدر بك ان تتلو سبحتك متواصلاً

---

(١) طعام لفيف اي مخلوط من جنسين فصاعداً . تعريب قولهم Olla-podrida

شكرًا لله على هذه النعمة العظمى لانك وجدت في بيت مضيفك طعاماً كهذا

ولم يطرق اذن الخادمة ذكر المضيف والضيافة حتى رفعت بصرها فرأت رفيق الكاهن الغريب فاكفهر وجهها فجأة وحملقت عينيها فانبعث منهما شرار الغضب ووجهت ببصرها الحاد الى الزائر ثم صوبته الى الكاهن فاغمض هذا عينيه وقال بصوت منخفض كالصبي المتخشي الخائف من توبيخ والديه :

هرقي على جمرك ولا تجزعي فان ما يكفي اثنين يكفي ثلاثة . اني اربأ بنفسي وبك ان نترك اخانا بالمسيح يموت جوعاً وعطشاً لانه لم يذق لماظاً منذ يومين

— اتدعو هذا مسيحياً ؟ لا . بل قل انه لص شرير وقاطع طريق

قالت هذا ثم خرجت وهي تتلو آيات الغضب

اما الضيف فكان واقفاً واجماً ما دام هذا الكلام القاذع على عتبة الباب لا يبدي ولا يعيد . وكان سبط الجسم تعلوه اسمال رثة قد تلوثت بالحمأ وشعره اسود وعيناه براقتين . ولم تكن هيئته ولا بندقيته الضخمة لتستميلا القلوب فيعود اليها الامن فقال : أينبغي لي ان أذهب ؟

فاجابه الكاهن باشارة بليغة قائلًا : لن يبارح ضيفي مطروداً من منزلي ولن يُسأ استقباله . هلمّ فنتلو الصلاة ونباشر بالاكل . أنزع عنك بندقيتك

— لن انفصل أبداً عن سلاحي عملًا بقول القائل : أنا وسلاحي

شخص واحد لا يقبل التجزؤ وبندقيتي صديقي الصدوق فسأحتفظ بها بين يدي . لا ريب انك ايها الفاضل تودني وتتزاني في بيتك على الرحب والسعة ولا تدعني اخرج منه الا بأدب ومتى شئتُ . ولكن من الناس من يودّ ان يخرجني منه قسراً عني ورجلاي اولاً . هلمّ الى الطعام . نخبك !

وكان الكاهن جائعاً لكنه دهش لدى رؤيته نهم ضيفه الغريب الذي لم يكتف بازدراد ما في القصعة من الطعام بدلاً من ان يتبلغ به بل اشتفّ ما على المائدة واتى على رغيف يزن أقة . وفيما هو كان يلتهم الطعام أخذ يرسل رائد الطرف يميناً ويساراً وعلى وجهه تبدو امائر القلق والاضطراب فيتزعج لأدنى حركة . وحدث ان الريح اغلقت باباً بشدة ففزع الى بندقيته وتفقدها ليرى ان كانت محشوة وعزم ان يدافع عن نفسه دفاع الابطال ولم يلبث ان ثاب اليه هدوه فرجع الى محله وعاد فجلس يأكل . فقال والطعام ملأ شدقيه :

والان يا ابت المحترم ارجو منك ان تتمم ما شرعت به من المعروف اذ اضفتني هذه الليلة وهو انني قد جرح فخذي ولم اضمده منذ ثمانية ايام . تكرّم عليّ ببعض خرق عتيقة وابارح منزلك شاكراً

فاجابه الكاهن وقد انبسطت نفسه لحديث ضيفه ودعابته وانس به رغماً عن قلقه المتواصل :

على الرحب والسعة يا صاح . لم استثقل وجودك قطّ . ان لي

الماماً بتضميد الجروح فاقوم لديك مقام الجراحي المضمد واخفف عنك عناء التفتيش عمن يحسن هذا العمل فلا تضطر الى مساعدة حجام أخرق واستعمال خرق قذرة . مهلًا وتتحقق بنفسك مهارتي

ولم يكد الكاهن ينطق بهذا الكلام حتى اخرج من خزانة جهازاً كاملًا للتضميد وشرع يعدّ ما يلزم لاتمام عمله كجراحي ماهر . وكان جرح ضيفه بالغاً لان رصاصة بندقية كانت قد اخترقت ساق ذلك التعس وكان مضطراً الى التجلد والصبر على احتمال الآلام عند المسير . فقال له الكاهن وهو يضمد جرحه بمهارة عجيبة كانه مارس ذلك مدة طويلة : لا يمكنك اصلًا ان تسير اليوم يا صاح وينبغي لك ان تقضي ليلتك هنا لتستريح وتستعيد قواك فيخف التهاب الجرح ويخمص الورم

فقاطعه الضيف الجريح بخشونة قائلًا :

يلزمني ان ابارح الساعة هـذا المكان لان اناساً ينتظرونني بفارغ الصبر وآخرين يطلبون نفسي

قال ذلك وفي لهجته شيء من الفظاظة . ثم اردف قائلًا :

هل انجزت عملك يا ابتِ المحترم . جوزيت خيراً ، انني مرتاح جداً ، كاني لم اجرح البتة . اضف الى صنيعك وحسن استقبالك لي قليلًا من الزاد . رغيف واحد حسبي واليـك هذه القطعة الذهبية قبل ما انالتني من المعروف وحسن الضيافة

فرفض الكاهن المـال بانفة وعزّة نفس قائلًا : لست بصاحب فندق ولم اكن ممن يبيعون الضيافة بالمال

— اعذرني وكن ما شئت . استودعك الله . ولم يكد الضيف يفوه بهذه الكلمات حتى تأبط الرغيف الذي احضرته الخادمة وهي غضبى وانساب بين اغصان الاشجار الغليظة التي تحف بمنزل الحوري او ان شئت قل بكوخه الحقير

وبعد ساعة سمع اطلاق البنادق شديداً وعاد الغريب الى الكوخ وقد جرح في صدره وشحب لونه . فقدم للكاهن بضعة نقود ذهبية قائلاً : اولادي . . . في الوادي . . . قرب الساقية

ثم سقط الى الارض من العياء . ودخل حينئذٍ رجال الشرطة الاسبانيين فلم يجدوا مقاومة فشدوا وثاقه دون عناء . وبعد ذلك أذنوا للكاهن الشفيق ان يداوي كِلامه ويضمد جرحه ورغماً عن اعتراضات الممرض صاحب البيت وملاحظاته فيما يتعلق بالخطر المحدق بحياة ذلك الاسير الجريح لم يرعو الشرط عن حمله على عجلة نقل قائلين :

هوّن عليك يا أبانا . لن يموت الّا ميتة واحدة وخير له ان يقضي نحبه على الطريق من ان يصلب لان موته مؤكد اذ هو « جوزه » ذلك اللص الشقي الشهير

واذ ذاك حنى جوزه رأسه شاكراً الكاهن ثم طلب قدح ماء ليشرب . وفيما كان الكاهن منحنياً ليدني قدح الماء من شفتيه قال له بصوت خافت : او تعرف ؟ فاجاب الكاهن باشارة خفية بالايجاب

وبعد ان ابتعد الشرط واسيرهم خرج الكاهن مجتازاً

الغاب رغماً عن ملاحظات قهرمانته وبراهينها الطويلة القاطعة عن خطر المسير وعدم فائدته في ذلك الوقت

ولما وصل الى العقيق وجد امرأة قد قتلت بطلق نار الشرط او الجنود عن غير تعمد في تلك المعركة والى جانبها طفل في سن الرضاع وآخر صغير بلغ الرابعة من عمره وقد امسك امه من ذراعها يحاول ايقاظها كأنه توهمها نائمة. وما كان اشد دهشة مرغريتا الخادمة لما رأت مولاها عائداً مع الولدين فقالت له بلهجة الاستغراب: وماذا تريد ان تفعل بهما يا حضرة الخوري. وليس عندنا ما يكفينا لقوتنا الضروري نحن الاثنين. وقد ضاعفت عددنا باحضارك هذين الاخرين وهل يقتضي ان استعطي لكي أقوم باودنا واودهما. ومن هذان الطفلان ؟ ولدا متشرّد نوري واص او شرّ خلق الله. واؤكد لك أنهما غير معمدين

وحينئذٍ جعل الرضيع يبكي فقالت: وعلامَ عزمت الآن لكي تغذي هذا الطفل ونحن لا نستطيع ان نستأجر له مرضعاً. فينبغي ان نشتري له ثدياً اصطناعياً ولا يمكنك ان تتصور كم يتطلب ذلك مني من العناية والعناء والسهر. اما انت فستنام براحة وسلام. مسكين لم يتجاوز عمره ستة أشهر. ولحسن حظه لم يزل عندي قليل من اللبن يا حبذا لو سخن قليلاً

وهكذا لم تعتم ان نسيت غضبها فاستلمت الرضيع من يد الكاهن وشرعت تهدهده وتقبله. ثم جثت الى جانب النار تضرمها بيد وتربث الطفل بأخرى او تسخن الحليب

ولما شبع الرضيع ونام جاء دور الثاني . وفيما كانت مرغريتا تطعمه وتبدل ثيابه وتعدّ له فراشاً من اسمال الكاهن قص عليها هذا قصة الولدين واين وجدهما وكيف توصلا الى وصايته . فقالت وقد سكن ثوار غضبها السابق : لا شك ان هذا العمل لحسن وصالح ولكن يجمل بنا ان نعرف كيف نتمكن من الوصول الى ايقاتهما وايقات أنفسنا

وعند ذلك فتح الخوري الانجيل وقرأ: «من سقى أحد هولاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق اقول لكم انه لا يضيع اجره . متى ١٠ : ٤٢» فاجابت القهرمانة : آمين

وفي اليوم الثاني احتفل الكاهن بجناز المرأة التي قتلت بجانب العقيق ودفنها تالياً الصلوات المعتادة

*

وبعد هذه الحوادث باثنتي عشرة سنة كان خادم كنيسة القديس بطرس يتدفأ بنور الشمس امام منزله الحقير ايام الشتاء . وكانت الشمس تظهر لاول مرة في ذلك النهار لانجابها الطويل بالسحب المتراكمة منذ ايام

وكان الى جانب الكاهن فتى يبلغ الثانية عشرة من سنه يقرأ بصوت عالٍ في كتاب فرض الكاهن — السواعية — وينظر نظرة الغيرة الى شاب يبلغ السادسة عشرة من عمره جميل القامة نشيط يشتغل بهمة واندفاع في البستان الصغير المجاور مسكن الكاهن . اما مرغريتا وقد كفّ بصرها فكانت تسمع القراءة

وفي تلك الساعة سمع دوي عجلة فصرخ الصغير مندهشاً : ما اجمل هذه العجلة ! ما اجملها ! وفي الواقع كانت العجلة فخمة جميلة قادمة الساعة من اشبيلية . فوقفت امام بيت الكاهن وترجل منها خادم ببزته الرسمية وطلب من الكاهن كأس ماء لسيده . فقال الكاهن للفتى الصغير : قدم ياكريوس قدح ماء لهذا الشريف وأضف اليه كاس خمر ان شاء ان يقبله — عجّل

وبعد هنيهة فتح باب العجلة وترجل منها كهل يبالغ الخمسين من سنه فقال للكاهن :

— هل هذان الفتيان من اقاربك يا أبت المحترم

— لا بل أجمل من ذلك يا سيدي فهما ولداي . لأني قد تبنيتهما

— وكيف ذلك ؟

— ساقص عليك قصتهما اذ لا يليق بي ان اكتم عنك شيئاً ترغب في معرفته . هذا فضلاً عن اني بحاجة الى مشورتك وقد أصبحت شيخاً هرماً ولا خبرة لي في الاشياء الدنيوية واحتاج الى نصيحة لكي اضمن مستقبل هذين الغلامين قبل ان تدركني الوفاة

ثم قصّ عليه ما يعرفه القارئ عن الغلامين وختم كلامه قائلاً بِمَ تُشير عليهما أن يكونا ؟

— ضابطين في حرس الملك ولكي يقوما حق قيام بما يتطلبه منهما مقامهما الرفيع ينبغي ان يخصص لهما ريع سنوي قدره اربعة

الا ف ريال

— لا يحق لك يا سيدي ان تعبث بي وتهزأ وقد طلبت اليك ان تزودني بنصيحة . . .

— . . . ثم ينبغي لك ايضاً ان تجدّد بناء هذه الكنيسة وان تشيد الى جانبها مسكناً جميلاً يحاط فناؤه والحديقة بشبكات الحديد وهذا الرسم في جيبي فاطلع عليه لعله يعجبك وسندعو كنيستك هذه كنيسة « كأس الماء »

— ما معنى هذا وما مرادك . ما هذه الذكرى . . . كأنني أعرف هذا الصوت . . . وهذه الملامح . فمن تكون

— معنى هذا انني « جوزه دلا ريبيرا » وكنت ادعى منذ اثنتي عشرة سنة « اللص جوزه » . قبض لي الهرب من السجن . وقد تغيرت الاحوال منذ ذاك الوقت فاصبحت ببركة دعائك زعيم احزاب سياسية ، بعد ان كنت زعيم لصوص . قد اضفتني في بيتك وقت لدى ولديّ مقام الاب الشفيق فليأتيا ويعانقاني . ها . نذا انتظرهما فلينطرحا بين ذراعيّ

وبعد ان عانقهما طويلاً وضمهما الى صدره مراراً متوالية والدموع ملء عيونهم جميعاً مدّ يده الى الكاهن مصافحاً وقائلاً : الا تقبل يا أبت كنيسة « كاس الماء » فالتفت الكاهن الى مرغريتا وقال لها :

« ومن سقى احد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد باسم تلميذ فالحق اقول لكم فانه لا يضيع أجره . »

فاجابت القهرمانة العمياء التي كانت تبكي اولاً فرحاً لسعادة مولاها والفتيين ثم حزناً لفراقهما : آمين

وبعد سنة من ذلك اليوم حضر دون جوزه وولداه تكريس كنيسة القديس بطرس المنسوبة الى « كاس الماء » وهي اجمل الكنائس التي شيدت في جوار اشبيلية لذلك العهد

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

سر داب الدير

سرداب الدير

١

اسقط الاخ البواب المزلاج الخارجي ثم توجه بقدم بطيئة الى الدير الى الغرفة العمومية ليسهر مع اخوته ليلة الميلاد. وكان الظلام قد مدّ سرادقه منذ ساعتين او ثلاث فعم سائر الكائنات . وزاد الظلام حلوكة غيوم دجناء متكاثفة في الجوّ تغطي وجه النجوم فتمنع وصول سناها على بني الغبراء. وكانت الريح تهب بها فتبعدها وتأتي باشد حلكاً منها والظواهر الجوية تدل على قرب حدوث عاصفة شديدة يثبته هدير البحر وهياجه العجاج

وبعد ان انتهى رهبان دير مار اسطفان المنتمين الى القديس مبارك من تناول طعامهم الزهيد اجتمعوا في القاعة العمومية منتظرين حسب عاداتهم الساعة الثانية عشرة للشروع بالاحتفالات الدينية الليلية

وكان المؤمنون الذين تحيط بيوتهم بذلك الدير قد علقوا يستعدون للعيد ويتعاطون الاعمال الخدمية او يصلون

*

غير ان قلوب الجميع لم تكن منصرفة الى الفرح رغماً عن حلول عيد ميلاد الرب. لانهم كانوا في أواخر سنة ١٣٧١ والحرب قائمة على قدم وساق بينهم وبين الانكليز . وكان هؤلاء قد احتلوا البلاد منذ اقترنت احدى الاميرات المسماة اليُنورة بهنري الثاني ملك

انكلترة . وشعر المحتلون بموقفهم الحرج فجعلوا يتمسكون بما لديهم من الذرائع محافظة على مراكزهم . وخاضوا مواقع وحروب شهيرة كانت عليهم وخيمة العاقبة

وكانوا في وقت هذه الحادثة محتلين مدن عديدة من فرنسة يعيثون فيها ويحتلون سكانها الاجنبية الفادحة . وكانت الادعية الحارة ترتفع الى السماء من كل صوب والتوسلات الى ملك فرنسة ليسرع الى اغاثتهم وانقاذهم من نير مستعبديهم الظالم . ولم يعتموا ان رأوا على افق متمنياتهم شعاعاً من الامل . فان الفتى رينو سيد يونس لم يكن يبلغ من العمر سوى ست وعشرين سنة وقد غدا قائداً شجاعاً عرض على كارلوس الخامس خدماته وجند من قومه عدداً عظيماً من الفرسان وهب لمساعدة دي غسقلين البطل الشهير . واشتهر رينو بشجاعته واقتحامه المخاطر واقدامه في موقعة مون موريليون حتى ان الملك سماه مندوبه السامي على مقاطعة سانتونج ودعاه «ابن عمه العزيز» ووهب له الف دينار علاوة على ايراد سنوي مقداره ستة الاف ليرة ودخلت جنوده منذ ايام الى الناحية التي كان فيها دير القديس اسطفان لتطرد منها الاجانب فاصلتهم نار القتال في ذلك النهار نفسه بالقرب من قصر مورانك ولم تعلم نتيجة الموقعة بعد

فهل قُدّر لهم النصر ام الانكسار يعقبه معاملات سيئة وتعديات شنيعة حائفة على الاهالي تشفياً فيهم واثئاراً منهم

هذا ما كان يجول في افكار اولئك الرهبان وهم مجتمعون ويتساءلون هل عيد الميلاد الذي يحتفل فيه بمجيء فادي البشر على

الارض يضع حداً لآلامهم العقلية هذه السنة وينقذهم من ربقة الاسر او يكون فاتحة جور وبغي اشدّ مما سبق لان الاعداء لا يجهلون ميل الرهبان الى فرنسة والادعية الحارة التي يدعون بها لنصرتها

طال عليهم السهر وهم في ارتياب أليم مما خبأ لهم الدهر

واذ ذاك قال لهم الرئيس : ايها الاخوة فلنرفعن قلوبنا فوقاً الى الرب ولنفرحن ولنتقن به رغماً عما نخشى حدوثه في المستقبل ولنطردن بعيداً عنا في هذه الليلة المباركة كل داعي قلق وحزن . اننا سوف نرى الطفل الالهي فادي البشر مولوداً لطيفاً يبسم لبني البشر التعساء ويسكب عليهم غيوث نعمه الغزيرة

وكان على صوت ذلك الشيخ الجليل مسحة من الرقة والوداعة بيد انه تكلم بلهجة الآمر . وكان طويل القامة ذا لحية بيضاء طويلة مرسلة الى نصف صدره على ثوبه الاسود ورأسه الجليل مكسوًا بقبعته القاتمة تحيط بوجهه الوقور وترسل شعاعاً من قداسة نفسه . وكانت هذه الصفات تجذب اليه النفوس وتولد فيها الثقة

وعادت الطمأنينة الى نفوس الرهبان فاخذوا يتجاذبون اطراف الحديث فيما بينهم بذلك المكان لا يخافون من عين رقيب او اذن جاسوس يتكلمون عن الماضي وعن الاخوة الذين كانوا منتشرين في الاديرة المجاورة

٢

دقت الساعة الحادية عشرة واخذ الاخ الأبيل يقرع الجرس

لصلاة نصف الليل وخرج البواب ليفتح الرتاج الخارجي فيدخل المؤمنون الى الكنيسة لحضور القداس . ولدى وصوله الى الرتاج سمع ضجة وضوضاء جنود سائرين . فوقف مشغول البال . ولم يكن الا القليل حتى سمع الباب يقرع قرعاً سريعاً عنيفاً متواصلاً ففتح وشاهد عشرة من جنود الانكليز قد اسرعوا فولجوا الى فناء الدير الداخلي وصاحوا به جميعاً :

— نجنا والاّ هلكتَ

فارتعب الراهب لدى مشاهدتهم ولم يدرِ كيف يجاوب . فقال بصوت متلجلج :

— من انتم ؟ ومن اين آتون ؟

— ان جنود رينو قد طردونا من قصر مورنك عند هجوم الظلام وتمكنا ان نفلت من اظفار الردى هاربين من باب خفي تحت جنح الظلام لكنهم سوف يفتشون علينا في كل مكان . فادخلنا الى السرداب الذي تحت الدير، ونحن نعلم العلم اليقين بوجود السرداب ، فنهرب منه ونلحق بجماعتنا المقيمين في روايان سائرين على الشاطئ .

ولم يمضِ بضع ثوانٍ حتى ارسل الرئيس وكيله فنظر هذا الى الجنود وقال :

— انني اعرف من انتم . ان بينكم من أتوا منذ اسبوعين الى دير القديس نقولا في روايان وشوشوا باعمالهم النفاقية حفلة عيد الحبل بمريم البتول البرية من دنس الخطيئة الاصلية كما جرت العادة

ان نحتفل به منذ أجيال . لقد عرفتكم ولا سبيل للانكار

وكان بعض هؤلاء الجنود لدى سماعهم كلام الوكيل اخذت فرائصهم ترتعد فرقاً لانهم تذكروا فعلتهم الشنعاء الفاضحة التي فعلوها اذ كانوا سكارى فاساؤوا معاملة الكهنة والرهبان المؤمنين في كنيسة القديس نقولا اذ كانت مشعة بالانوار اكراماً لام الله . وقد اساؤوا خصوصاً معاملة الاب الوكيل الذي كان في العيد فاهانوه وضربوه ... اجل انهم قد تذكروا كل شيء .. ولكنهم رأوا ان في الاحتقار ملاذاً ليس في غيره وقبح الكلام سلاح اللئام . فزادوا تكبراً وتعجرفاً وقالوا بعد ان فاهوا مجدفين :

— ليس الكلام في هذا الصدد الان . اسرعوا الى نجاتنا والا .. واضافوا الى الكلام اشارة التهديد . غير انهم لم يخوّفوا الكاهن فقال لهم :

— عجباً لكم ! او تقدمون في هذه الليلة ليلة الميلاد الشريف على اقتراف مثل هذه الجريمة ؟ أو لستم مسيحيين ؟ ألا تخافون الله ؟

— كفى كفى ما قلت يا راهب . افتح لنا باب السرداب وانصرف الى تتمة صلواتك . فاننا لا نحب تطويل الكلام وخصوصاً في هذا المقام . فقال الوكيل :

— اننا عازمون على الاحتفال بعيد الميلاد وهو كما تعلمون هدنة . فبدلاً من ان تنضموا الينا فنحتفل بهذا العيد وتذوقوا لذة الفرح الحقيقي بضع ساعات بالقرب من الهكم ...

— كفى ! قلنا لك كفى . ولعلك متفق مع اعدائنا الذين

يمكنهم ان يفاجئونا فيأخذونا على غرة كما يؤخذ العصفور في القفص ويعملوا فينا السيف

— انني لمتأكد يا اخوتي ان رينو وجنوده يذوقون لذة الراحة والانتصار ويؤدون واجبات الشكر امام مهد المخلص لانهم مسيحيون وفرنسيون هم

ولم يكن هذا التلميح الا ليزيد قلقهم ويستحثهم على متابعة مطاليبهم فاحاطوا به مستشيطين غضباً وصارخين :

— هلمّ بنا . هلمّ بنا الى السرداب

فلم يرَ بدًّا من الرضوخ لما يطلبون فقال :

— اصبتم . انه يسهل عليكم كما تظنون ان تنجوا اجسادكم في هذا السرداب ولكن نفوسكم ...

فلم يجيبوه الا بالتجديف كعادتهم لان ذلك التلبث قد احفظهم وسار الوكيل امامهم من على يمين الدير ودخل بهم الى دياس تحت الارض بعد ان نزلوا عدة درجات ينير خطاهم مشعل ثم فتح باباً متيناً وادخلهم معبرًا طويلاً مظلماً ولما بلغوا اقصاه قالوا له :

اننا نشكرك . ولا حاجة لنا الى معونتك الان فسوف نبلغ البحر وحدنا

— ما لكم الا ان تفتحوا الثلاثة الابواب التي أقيمت على أبعاد متساوية وهي تغلق بعدكم من تلقاء نفسها وسيؤدي بكم السير الى صخور نوزان ما لم يكن البحر ... فقاطعوه قائلين :

ما هذه الجلبة التي في الفناء ؟هل جاء الاعداء لكي يطاردونا؟

دعنا وشأننا كما قلنا لك وانصرف من هنا

واذ ذاك ارتج عليهم الباب الاول بينما كان الوكيل صاعداً الى الدير وكانت الكنيسة قد غصت بالمؤمنين الذين قد جاؤوا لحضور الذبيحة الالهية واقامة الصلاة والتنعم بافراح تلك الليلة المقدسة العجيبة التي ولد فيها الفادي الالهي ليخلص النفوس ذات الارادة الصالحة

٣

كان هواء الكنيسة حاراً ومعطراً برائحة البخور وهي مشعة بانوار القناديل والشموع العديدة والاذان مصغية الى سماع الالحان الكنائسية الشجية فانصرف الذهن عن الاصغاء الى عصف الرياح وزمجرة البحر فلم يكد الحضور يشعرون بتلك العاصفة الشديدة التي ألمت بناحيتهم

وكان البحر قد طغى وغمر ما يجاوره من الاراضي بعد ان هدم الحواجز واجتاح الصخور واستأصل الاشجار وافسد السواحل والارياف

وكانت العاصفة اعظم من ان يحيق بها وصف

وعند الصباح هدأت الريح وسكنت العاصفة وبزغت الشمس فانارت باشعتها شواطىء البحر وكانت السكينة قد ثابت نوعاً ما الى البحر وارتدت مياهه الى مكانها الطبيعي. فبانت لعيون الناظرين مفاعيل تلك العاصفة والخراب الذي احدثته فظهر ذلك المنظر مرعباً ومبكياً معاً. وكان الخراب على مدخل مغارة نوزان عظيماً

ولما اراد الرهبان ان يتفقدوا شؤون تلك المغارة ويتعهدوها بالاصلاح شاهدوا في السرداب بين البحر والباب الاخير جثث جنود الانكليز العشرة محتاطة بالحجارة والصخور وانقاض الخراب . ويظن انهم لما ارادوا الاجتياز من المغارة الى الخارج تعاظمت الامواج على باب السرداب واحتملتهم فطرحتهم على الصخور فطحنتهم طحناً ثم لفظهم البحر الى حيث وجدت جثثهم

اما سكان تلك الانحاء المجاورة فلم يشكّوا ان ما اصابهم كان لانهم رفضوا ان يعيدوا الميلاد

ولو فعلوا لكانوا نجوا

لکل امرئ ما نوی

لكل امرئ ما نوى

١

الى الاتون (١)

كان القصر فخيماً مبنياً على منحدر الجبل بحجارة محببة لا تقوى عليها عواصف الدهر. وقد نبت في ظل جدرانه العالية بعض اشجار السنديان. فكان الرائي اذا نظر اليه من بعيد خاله وكنة عظيمة جعلت على احد الصخور

وكانت طريق مظللة تمتد من جسره النقال المتين المحافظ عليه بضخامة سلاسله وتؤدي الى كنيسة القرية. اما بيوت المزارعين فكانت مسندة الى بيت الله والقصر مشرفاً عليها جميعها

وكان على ذلك الطريق الوعر رجل يسير راكباً وقد أسرع كأنّ أمرًا هامًّا يخالج صدره فيدعوه الى التعجيل

ولم يكن هذا الفارس الا الكنت جان رب القصر وصاحب القرية وقد بناهما وبنى الكنيسة اجداده مذ عادوا من الحروب الصليبية. غير انه كان بعيداً عن هذه الافكار وما كان عليه اجداده

---

(١) ان هذه الحادثة التاريخية جرت في ايام القديسة اليصابات ملكة البرتغال ورواها غير واحد من المؤرخين الكنسيين. غير ان بعض الكتبة قد تصرف بها وجعلها في قالب روائي فأثرت تعريبها في هذه الصورة رغبة في طلاوة الجديد

من الايمان والاحسان الى قريبهم ولم يرث منهم الا قليلاً من الشجاعة متى دعت الحاجة اليها

ولم يكد القرويون يرونه حتى بادروه بالتحية حسب عادتهم متسائلين فيما بينهم ما عسى ان يكون من امره وهو يسير وحده مسرعاً في تلك الساعة . وادى به المسير الى ما بين بضعة بيوت نظيفة في وسط القرية وتجاوز الكنيسة دون ان يبدي علامة احترام حاسراً عن رأسه او مترجلاً عن فرسه او داخلاً اليها مصلياً . تلك عوائد قد نسيها وليست من شأنه في هذا الوقت

وواصل السير مدة ربع ساعة ثم توقف وترجل قائلاً :

— قد بلغت المكان المقصود

وكان امامه غيضة بين اشجارها حفر عميقة وكوم حجارة بيضاء وبضع منقلات ملئت من مواد تشبه الفضة لوناً وتكاد تسيل

ولم يستقر به المقام حتى تألب حوله بضعة رجال من خلواتهم السرية واحاطوا به مذ اشار اليهم : ان تقدموا

— نحن سامعون لأوامرك يا مولانا

دعوه بهذا اللقب لانهم كانوا قد عرفوه

— قد قصدتكم لانني بحاجة اليكم

— مر بما تشاء

— ألم تزالوا تصنعون الكلس

— بلى مولانا وقد اضرمنا نار الاتاتين منذ حين وها ان لسانها

قد اندلع فلا تعتم الاتاتين ان تغدو صالحة للعمل

— نعم ما تفعلون ايها الفتيان وهذا لعمري غاية مناي فواظبوا على اضرام النار كما بدأتم . وقد عزمت ان ارسل اليكم بعد قليل شيئاً من الوقيد فلا تهملوا امره واجعلوه حالاً طعاماً للنار في هذه الجصاصات ثم اجملوا فوقه الحجارة

وتبسم اذ ذاك تبسماً خبيثاً كانه تبسم ابليس

قال هذا وادخل يده في منطقته فاخرج كيساً مملوءاً ذهباً ودفعه الى العملة قائلاً :

اليكم ايها الفتيان ما يعوض عما اضعتم من الوقت في محادثتي . فهذه الدنانير لكم ان كنتم تكتمون السر

فلمعت عيون هؤلاء الفعلة ببرق الطمع اذ شاهدوا تلك الدنانير اقرب اليهم من قاب قوسين . وان يكونوا يعملون اذ ذاك ما يتوجب عليهم لكي يرجوها قبلوا الكيس واقسموا جهد أيمانهم انهم يحفظون السر

— ان في قصري غلاماً قبيحاً لا اطيق ان اراه فسابعث به اليكم بعد هنيهة قائلاً : « ان مولاي يسألكم هل اقمتم اوامره » وحينئذٍ أمسكوه من عنقه وسدوا فاه ثم القوه في الاتون إهلاكاً له . أفهمتم ؟

فاجابه الجصاصون بالايجاب . اما هو فامتطى صهوة جواده وعاد حثيثاً الى القصر

٢

بغض ومحبة

كان بين من يقومون بخدمة اهل القصر غلامان سنأتي على وصفهما وكانا قد جُبلا على طباع مختلفة متضادة وترعرعا في بيئتين متغايرتين فنشأ كل منهما نقيض الآخر ولم يكونا يحبان احدهما الآخر او بالحري كان واحد منهما فقط يبغض رفيقه الذي شب على المبادئ المسيحية السامية ولم يُخل بواجب المحبة

وكان الاول يدعى غسبار وهو قوي البنية يلذ له الجري وراء الغزلان للصيد ويحب الجدال محبة زائدة مع اترابه الغلمان او الخدم وقد دخل القصر وهو يافع فحظي لدى رب القصر واضحى عزيزاً عنده فكان هو ومولاه عائشين كعبدة الاوثان يذهبان الى الحرَجة يوم الاحد عوضاً من ان يذهبا الى الكنيسة لسماع القداس الالهي. وحدّث رب القصر نفسه ان يزوجه بابنته مرغريتة التي كانت كاملة زينة تلك الناحية بتقواها وصلاحها وجمالها

اما الثاني المدعو لويس فكان وديعاً كالحمل وتقياً صالحاً توفي والداه وهو حديث السن في بعض القصور التي كان اربابها خاضعين للكنت يوحنا فجيء به وهو صغير فشبّ تحت عناية امرأة الكنت اليصابات مع ابنتها مرغريتة وترعرع وكان كلما تقدم في السن ازداد حب سيدته له وتعلقها به. ورق شعوره وتنبه مع التقوى بره بالمحسنة اليه منذ نعومة اظفاره وكان يحسن الى الفقراء ويمضي وقتاً غير قصير في الكنيسة يضرع الى الله والى امه

البتول الطاهرة تالياً الصلوات التي تكرم بها آنئذٍ. وهو مع ذلك يتحامى الاجتماع بغيره من زملائه رغبة عن اللعب ولكيلا يسمع منهم او من غيرهم كلاماً تخدش به اذناه الطاهرتان. واذا شاء السلوة عمد الى قراءة بعض المخطوطات الانيقة المزينة بالصور او اصغى بلذة الى قصص الشيوخ وحكايات السياح

اما الكنت جان فلم يكن يطيق النظر الى ذلك الغلام المسكين. وشرع في ابتداء الامر يسخر به ويدعوه جباناً جزوعاً ويتهدده ضاحكاً بان سوف يرسله يعيش في بعض القصور المهجورة. غير ان الكنتة اظهرت ما في قول قرينها من الاهانة للويس واخطرته انها اتخذت الغلام تحت حمايتها. وكان ما فعلته تلك السيدة الصالحة كافياً ليضرم في قلب زوجها الشرير نار البغض وسوء النية بزوجته

اما غسبار الخبيث فكان يبالغ في اسعار نار الشحناء وينتهز الفرص لبلوغ غايته هذه. فاذا ذهبا الى الصيد وعرضت نهزة فاخذا شيئاً من الراحة كان ذلك الغلام الرديء يقول لمولاه :

— الا تزوج لويس من ابنتك مرغريتة يا سيدي ؟

— انت تعرف جيداً ان ابنتي لا يقترن بها سواك ياغسبار

غير ان ذلك اقلق الكنت وحرشه على لويس الوديع الصالح والحكيم التقي. فغدا يسأل نفسه قائلاً : ما الوسيلة الى التخلص منه يا ترى ؟ وعلق يزداد كل يوم شراسة وفظاظة نحو ذلك الولد. اما لويس فكان سعيداً بالقرب من الكنيسة وربة القصر والفقراء وان اثرت فيه معاملة مولاه السيئة بعض التأثير يقدم احزانه

اكراماً للفادي الذي مات لاجل خلاصه ويغتفر لغسبار غيرته ويقمعها بمجاملته ووداعته ودماثة اخلاقه

ولم يكن يؤثر في قلب السيد وغسبار ما فطر عليه لويس من الاخلاق الحسنة فتوغلا في بغضهما له

وفي صباح احد الايام تخاصم الغلامان خصاماً عنيفاً فتحزب الكنت لغسبار ودافعت الكنتة عن لويس فزاد هذا الحادث ضغناً على ابالسة وبلغ الغضب من الكنت مبلغاً فاحشاً حتى صرخ قائلاً :

— آن لي ان اضع حداً لهذه الحالة فلست بمحتمل هذه الخصومات في قصري زمناً طويلاً

وخرج من هنالك مشغول البال والشرر يقدح من عينيه فادى به المسير الى اصطبله فامتطى حصاناً ثم تجاوز الجسر دون ان يعلم احداً بمقصده واتجه نحو القرية ثم الاتون كما رأيناه سابقاً

٣

سماع القداس

ولما عاد الكنت لاحت على محياه علامات الفرح فظنت زوجته انه سار متنزهاً منذ الصباح وان عطور ازهار الربيع طردت عن جبهته غيوم الكآبة ونزهت عقله عن كل فكر سيئ . فحمدت الله على ذلك . ولم يلبث ان قال :

— اين الغلام لويس

وكانت حادثة الصباح لم تزل تماماً من ذهن الغلام فاقبل

مسرعاً . فقال له سيده متكلفاً التبسم

— اتريد ان تذهب في مهمة اكلفك قضاءها ؟

— نعم مولاي بطيبة خاطر

— عليك ان تذهب الى ما وراء القرية فتجد هنالك في غيضته عدداً من الفعلة يشتغلون في اضرام الأتن فتسألهم هل اتموا اوامري . أفهمت ؟

— نعم مولاي . وعمد لويس الى كمته فلبسها وهندم ثيابه واخذ معه كيس دراهم وسار فرحاً

ولم تكن الشمس قد بزغت الا منذ قليل فكانت تلقي باشعتها الحارة على تلك السهول الفسيحة الخضراء فتدب الحياة في النبات فينمو . واخذت الطيور تغرد على الاغصان مرددة الحانها الشجية . ولما خرج لويس من القصر عمد الى سبحته فاخذ يتلوها وهو ماش مدهوشاً بجمال الطبيعة وهذه خير وسيلة لارتفاع النفس الى الله

وكان في منتصف الطريق الممتدة من القصر الى القرية نصب شخص العذراء القديسة في ظل شجرتي سنديان وقد اعتنى المؤمنون بهذا الشخص وجعلوا له شبه مغارة من اغصان الشجر الخضراء واعتاد المارون ان يقفوا في ذلك المكان ويصلوا امام العذراء ام الله وام البشر . وكان على رأسها اكليل من الزهور الطبيعية وعلى قدميها باقات من النبات العطر اتت دليلاً على ايمان سكان تلك الناحية وحبهم لمريم العذراء

ولما بلغ لويس ذلك المكان توقف عن سيره قليلاً وحسر عن رأسه ولما لم يكن لديه زهور يقدمها عربون حبه واحترامه لمحاميته السماوية تلا عدة بيوت من مسبحته وبعد ان حياها تابع سيره الى القرية فبلغها بعد قليل

وحينئذٍ سمع جرس الكنيسة يقرع قرعة حزن فتفكر لويس بما يكون من امر هذا الجرس لعله يكون منبئاً بنزاع بعض سكان الناحية كما جرت العادة . لكن الجرس كان يقرع لقداس عن نفس بعض المتوفين فمال الى الكنيسة وهم بالدخول . فرأى في الدهليز بعض المتسولين مادّاً اليه يده فعمد الى كيس دراهمه واخرج منه بعض دراهم دفعها الى المستعطي فاجابه هذا داعياً له وقائلاً :

— حرسك الله بعنايته ايها الغلام اللطيف

ولما صار في الكنيسة وجد جدرانها مغشاة بالسواد وفي وسطها نعش مزين بالشموع يمثل تابوت الميت الذي يحتفل بالقداس الالهي لراحة نفسه . وكان الميت كاهن القرية توفي منذ وقت يسير

فجثا لويس على البلاط مصلياً وقال في نفسه يمكنني بلا ريب ان احضر الذبيحة الالهية اذ ان مولاي لم يطلب مني الاسراع في قضاء مهمتي ، والصلاة لراحة نفس المتوفى افضل الآن

وبدأ المرتلون بتراتيلهم وهي وان تكن محزنة فلا تعتم ان تعزي النفس وتقويها اذ تذكرها برحمة الله وتحول المحزون ان ينقاد لمشيئة الله تعالى فيبارك ذلك الاب السماوي

واحتفل بالقداس كما هي العادة في مثل هذه الظروف وحضره

الغلام بتمامه مصلياً مع المؤمنين . وقد شعر بسعادته وكأنه بالنفس التي قد صلى لراحتها قد تخلصت من نار المطهر وهي تنظر اليه شاكرة على فعله الصالح وقائلة له : ان الله سيكافئك على عملك هذا

وعند نهاية القداس بعد الصلاة الاخيرة خرج لويس من الكنيسة قاصداً الوجهة التي ارسل اليها وسار اذ ذاك مسرعاً ومرنماً بصوت منخفض كاحد العنادل المطلقة . ففات بسيره اهل القرية الخارجين من الكنيسة وقد جاؤوا اليها في ذلك النهار يقدمون لراعيهم المتوفى فريضة الشكر الاخيرة . فحياهم الغلام ببشاشته المعهودة فاجابوه على تحيته باحسن منها اذ كان اهل القرية يعرفونه جيداً . وسأله احدهم الى اين يذهب فقال :

— لا بأس علي كلفت قضاء مهمة صغيرة

ووصل بعد يسير الى الغابة المقصودة فرأى الفعلة قلقين في شغلهم والروائح الكريهة تنبعث من تلك الناحية المخوفة . فسأل الغلام نفسه قائلاً :

— ما عسى مولاي ان يكون أمر هؤلاء الفعلة بعمله يا ترى وهم ليسوا ببعيدين عن فعل شيء لا يحمدون عليه . ولكن ليس من خصائصي التدخل بشؤون مولاي وعلي ان أتمم ارادته ففضيلة الطاعة تأمرني بذلك . ثم تقدم من الفعلة الذين اخذوا ينظرون اليه بحذر وقلق فقال لهم :

— ان مولاي جان بعثني اسألكم ان كنتم اتممتم أوامره

فقال له هؤلاء . وقد هدأ روعهم :

— اذهب وقل لمولاك اننا اتممنا أوامره بكل دقة فحياهم وانقلب راجعاً

٤

اصبع العلي

مذ بارح لويس القصر لم يفتأ الكنت جان مضطرباً لا يهدأ له بال يسير مسرعاً في غرفته ذهاباً واياباً ولم يكن سبب ذلك الاضطراب تبكيت ضميره وانما كان عدم تصبره وتوقه لمعرفة نتيجة اثمه وموت الغلام

لم يكن يخشى في اختفائه الفجائي لومة لائم . فاذا سئل عنه يجيب انه ارسله بمهمة الى مكان بعيد فوقع بين ايدي قطاعي الطرق المنتشرين في الغابات . . . واذ بلغ الى هنا من التفكر في هذا الامر اخذ يسير مسرعاً ضارباً بؤخر قدمه الحضيض

واذ ذاك مرّ به غسبار فرآه الكنت من النافذة فقال في نفسه :

— لا اشك ان الغلام قد اجهز العملة عليه واضحى طعمة النار . فما لي الا ان ارسل عزيزي غسبار فيأتيني بالاخبار الصادقة فيهدأ بالي

واستدعى في الحال الفتى الذي كان يجهل ما حل بخصمه وقال له :

— هل يحلو لك قضاء مهمة يا عزيزي غسبار

— هذا جل مرادي يا مولاي

— اذهب الى ما وراء القرية واسأل الفعلة الذين يشتغلون بصنع الكلس هل اتموا اوامري

— على الرأس والعين يامولاي

قال هذا ثم سار مسرعاً . فمر امام شخص العذراء ولم يحيها ولم يقف امام الكنيسة مع انه كان يسمع اصوات المرتلين لان تلك الانغام المحزنة كان يقشعر لها بدنه . وادى به المسير الى مكان الاتن وكانت الجماعة بانتظاره . ولم يفتح فاه مخبراً اياهم بما جاء به حتى هجم عليه بعضهم وامسكوه من عنقه فسدوا فاه ورموا به في أتون . ولم يتمكن ذلك المسكين من ابداء حركة او ان يصيح مستغيثاً . فذهب طعمة النار وضحية بغضه للويس وحسده له . ولهذا السبب لما ظهر لويس نشيطاً فرحاً بعد ذلك ببرهة اجابه الجماصون : اذهب وقل لمولاك ان اوامره قد اتممناها بدقة

وقد نجا ذلك الفتى التقي بحضوره ذبيحة القداس . وما اشد ما كان دهش الكنت لما رأى لويس عائداً اليه صحيحاً معافىً فصاح به قائلاً : وغسبار اين هو ؟

— لست اعلم يا مولاي فاني لم أره

ففهم الكنت كل شيء . وفتح الله عينيه فلم يجسر على مقاومة نعمة الله فتاب توبة صادقة وعاش عيشة مسيحية مقتدياً بزوجته القديسة . وبعد مدة من الزمان زوّج ابنته من لويس ودافع عن مصالح مروءوسيه ما دام حياً واحسن اليه فاحبه الجميع

وبعد وفاته قام لويس بشؤون الرعية على غاية ما يرام فاحبه الكبير والصغير والرفيع والوضيع حباً شديداً لانه قرن العدل بالتقوى والرفق وهذه الغاية القصوى لم تجتمع لحاكم الا واجتمعت القلوب على حبه واحترامه

دعاء الأم

دعاء الام

كان قلب الام ولم يزل مُشبعاً لاشرف العواطف وارقها واحنها واجلها. وقد رُوي كثير من الحوادث والقصص التي تثبت هـذا القول وتظهر عطف الام وشفقتها وتضحية ذاتها حباً باولادها.

وهذا حادث تاريخي واقعي لا اثر فيه للمبالغة ولا غبار عليه للتلفيق والمواربة اسرده هنا وأقدمه للامهات اللواتي يعتنين باولادهن وتربيتهن تربية مسيحية حقيقية فاقول :

كنت أرى كل يوم احدِ شخصاً مهيباً رزيناً في احدى الكنائس الشرقية من مدينة ... حسن السمت يشترك مع خدَمة القداس بقراءة بعض المزامير والرسائل وغير ذلك مما هو من خصائص المرتلين، واماثر الوقار والخشوع والتقوى بادية على وجهه. فكنت اشكر الله على ان الكنيسة لا تخلو ولن تخلوَ من رجال عظام لا يرهبهم الانتظام في سلك خدمة مذبحه ولا يثبط عزيمتهم الحياء البشري

وقد حدث الفة وايناس ثم معرفة بيني وبين ذلك الشخص تحولت الى مودة ولم اكن اعرف عن سابق حياته شيئاً كبيراً. وكان في لهجته المصرية تأنق في النطق وميل شديد الى اللغة الفصحى مما جعله شاذاً في كلامه ولهجته عن غيره من الذين يخالطهم. فتنبه لذلك خاطري وقلت لا بد لهذا الشخص المهيب الوقور من بعض حوادث غريبة في حياته السابقة

وسألت بعض معارفي عنه فقال لي: هـذا فلان... كان في ابتداء امره مبشراً بروتستنتياً وذهب الى بلاد الانكليز ليدرس اللاهوت ويسام قسيساً. لكنه بنعمة خاصة وانعـام سماوي نال الرجوع الى حضن امنا الكنيسة المقدسة

وما كان هذا الكلام الا ليزيـد رغبتي ويشـدّد شوقي الى الاطلاع على تفاصيل تلك الحوادث. غير اني كنت اخشى دائماً ازعاجه ولم يكن لي عليه اذ ذاك دالة

ثم جاءت الحرب الكونية وانقضى زمانها الرهيب وذكر ذلك الارتداد العجيب يرن صداه في اذني حتى هـذه السنـة فتحينت الفرص

ولمـا كان يوم احدٍ تجاسرت وفاتحته بهـذا الموضوع قائلاً: بلغني ان مريم العـذراء عليها السلام قـد منت عليك بنعمة عظيمة فارغب اليـك ان استحسنت ان تقص عليَّ تفاصيل تلك الحوادث الغريبة

فاجابني حقاً ان في ارتدادي هذا امراً معجباً وثم سرٌّ يصعب عليَّ جداً إيضاحه. غير ان ما تطلبه يستغرق زماناً طويلاً وبما ان الوقت ضيق الآن فالى الغد الساعة السابعة والنصف صباحاً فازورك واقص عليك هذه الحوادث عن طيبة خاطر » فشكرته

وفي الغد اقبل الي بشوشاً لطيفاً على عادته وبعـد ان جلس وجلست قال:

ولدت في... في لبنان من قضاء الشوف سنـة ١٨٥٤ من

ابوين عريقين في النسب كاثوليكيين ابي من الروم الملكيين وامي مارونية . وكان اجدادي استوطنوا تلك القرية من زمن مديد وتقربوا الى حكام تلك الناحية من آل جنبلاط وتكاثرت اسرتنا فيها حتى أصبحنا ثلثي مسيحيي تلك القرية ولما ترعرعت اخذت عن امي اشارة الصليب وأبانا والسلام ونؤمن وهذا مجمل ما كنت اعرفه من الدين الكاثوليكي في حداثتي . واذكر جيداً انه كان لأبي ابن خال يدعى ... يقيم في عين زحلتا فكان يأتي يزورنا من وقت الى آخر وفي اثناء زيارته يحضر كتباً بروتستنتية ويتركها في بيتنا . وكان ابي يعرف القراءة البسيطة فاخذ بمطالعتها اولاً بداعي الفضول . اما ابن خاله فكان لا يترك فرصة تمرّ دون ان يدس تعاليمه الغوائية وينفث سمه في نفوسنا الساذجة زارعاً زوان الشك في معتقداتنا الكاثوليكية المقدسة

ولم ابلغ السادسة من عمري حتى حدثت الثورة في لبنان فاضطرمت نيرانها خصوصاً في قضاء الشوف وما جاوره ونجونا جميعنا من الموت بعناية ربانية وترقى ابن خال ابي فاصبح مبشراً ومسيطراً على جميع الرسالات والمدارس الانجيلية في الشوف وبهذه الصفة كان لديه مال وافر يوزعه على المحتاجين والمنكوبين من ابناء ملته . فصار له مقام سام في موطني

وابتلي ابي بدمّل في فخذه ودامت حاله مدة فاضطر الى مداواته حفظاً لصحته . وعرض عليه ابن خاله فذهب الى بيروت وهناك تولى معالجته جراحي مشهور من الطائفة الانجيلية واتم ما

شرع به ابن خال ابي فاجهز على البقية الباقية من ايمانه واستمالة الى البدعة الجديدة فاعتنقها بعد ان شفي من عاهته . ورجع الينا سليم الجسد عليل النفس . فساءنا جداً صنيعه هذا غير اننا لجهلنا لم نكن ندرك انه فعل فعلاً قبيحاً جداً ما عدا والدتي المسكينة فانها استاءت جداً من عمله وكثيراً ما كانت تقاومه مقاومات عنيفة وتحاجه في امور الدين

وفتح المبتدعون مدرسة في قريتنا فدخلت انا فيها . وكان بيد الكاهن الكاثوليكي اذ ذاك مدرسة غير انها لم تكن سائرة سيراً حسناً فتفوقت عليها مدرستنا بسهولة وكنت من الناجحين فيها والمقربين من المعلم لان ابي كان اول من جنح الى المذهب الجديد ولانهم رأوا في ذلك ما رأوا من حسن العائدة على التمذهب بمذهبهم . ورغماً من مشورات امي العديدة ومحبتي العظيمة لها درست كتبهم وحفظتها غيباً وحفظت الانجيل وجزءاً من الرسائل والتوراة وتعلمت الحساب والانشاء والخط وما الى ذلك من العلوم الابتدائية حتى انني اصبحت موضوع اعجاب الجميع وبحكم الضرورة تمذهبت بمذهبهم

بيد اني لم افتأ شديد التعلق بأمي بارّاً بها أسرّ لسرورها واغتم لغمها وكانت تقول لي غالباً : أرى انك تحبني يا بنيّ وانا احبك . وكيف تريد ان المسيح الذي هو الله لا يحب أمه مريم البتول وينيلها جميع ما تتمناه ؟

أما أبي فكان يزيد اكثر فاكثر تشبثاً بمعتقده الجديد وينحي

باللائمة على أُمي. فتجيبه بالصبر والتأسي وتقابله غالباً بمثل قوله فتنعته بالكفر وما اليه وتتفوّق عليه. وكنت ارى هذا النزاع واود لو ان أُزيل اسبابه من بينهما. ولكن وا أسفاه كنت قاصرًا عن ذلك

وقد بلغ النفور مرةً بينهما مبلغه حتى ان والدي عمد الى صورة للعذراء مسندة الى الجدار فمزقها وكسر زجاجها وكفافها. فكان عمله هذا ضغثاً على إبالة وثار ثائرُ أمي لدى مشاهدتها ذلك فقالت : أو تظن ان عملك هذا محصور في هذه الورقة وهذا الكفاف ؟ اعلم جيدًا انه قد تجاوزهما كما يتجاوزهما اكرامنا الى تلك التي ترفعت برينة من كل العيوب وهي قائمة في العالم الباقي الى جنب ابنها الالهي. وقاك الله شر هذا العمل الفظيع وأبعد عنا وعنك ما تستجلبه علينا بعملك

ولم يمضِ عليَّ بضع سنوات حتى تعلمت بمدرسة تلك القرية ما كان يمكن المعلم ان يلقنني اياه. واراد أبي أن يدخلني مدرسة عبيه فذهب في صيف سنة ١٨٦٧ وكلم المستر برد بخصوصي وكان ابي قد اشتهر أمره وغيرته. فقال الرئيس : ان لم يكن ولدك الاحق بالدخول فمن غيره ؟ وسررت انا بذلك وان قضي علي بالابتعاد عن والدتي لانني كنت أحب العلم ولان خفة بضاعتي في الدين الكاثوليكي سهلت امامي اعتناق مذهب سهل الممارسة لا يضغط فيه المرء على نفسه او حواسه بشيء يميل مع الاميال كيفما شاءت لا رادعٌ لها ولا وازع وما ثمَّ صومٌ ولا اعتراف ولا صلوات طويلة .

يمكن للمرء ان يترك الحرية التامة فيه لفكره وقلمه ولسانه دون معارض . وأنى لي آنئذٍ الذوق المميز السليم لكي افرق بين الغثّ والسمين فاتبع السراط المستقيم ؟

أقبلت الى المدرسة بجد ونشاط فاقتبست فيها المعارف اللسانية والعلوم الرياضية والدينية مدة ثلاث سنوات ولما حان خروجي منها ورأى المستر برد مني استعداداً للتبشير وجه بي الى دير القمر بصفة مساعد لمعلم المدرسة هناك فسرني ذلك لانهُ كان لي اقارب فيها وأقبلت بنشاطي المعروف فنلت نجاحاً باهراً وسرّ الرئيس في آخر السنة من تقدم تلامذتي فقال لي: « انك تستحق ان تكون معلماً اول غير ان ذلك لا يكون هنا بل في محل آخر

ونقلت الى سغبين ثم الى مشغرة : وفي مدة تغيبي عن أهلي أصبح اخوتي واخواتي جميعهم ما عدا والدتي متمذهبين بالمذهب الجديد وذلك بفضل بريد الشؤم ابن خال أبي الذي كان ينتهز كل فرصة لنشر تعاليمه المضلة قائلاً : « ان الكنيسة أفسدت تعاليم المسيح وانها تؤثر كلام الحبر الاعظم والمجامع المسكونية على كلام الكتاب وكلام الفادي نفسه (كأنّ كلام الحبر الاعظم وتعاليم المجامع تعاكس كلام الكتاب) وان الكنيسة الرومانية بابتعادها عن الايمان الحقيقي سقطت من ضلال الى ضلال حتى توصلت الى عبادة الاوثان وان اتباعها يعبدون صور العذراء ام الله والقديسين كما يعبد الوثنيون الاغبياء اشخاص آلهتهم الكاذبة

وفي تلك الآونة قدم من بلاد الانكليز الى مصر سيدة مثرية

جداً كانت ابنة استف برتستنتي يلقب برئيس اساقفة ارلندا وغير متزوجة فشاءت ان تخصص قسماً من ثروتها الطائلة لانشاء مدارس مختصة بجمعية الرسالات الكنيسية البرتستنتية . ورأت ان في الرسالات السورية خير مساعد لها في هذا العمل فاستقدمت منها عاملين في سن الفتوة يمكنهم قيادة هذه المهمة الى شوط بعيد

وكان لابن خال ابي ثلاثة اولاد قدموا الى مصر لهذه الغاية واخذوا على انفسهم انشاء تلك الرسالات بهمة ونشاط لا يعرفان الملل . غير ان اكبرهم توفي بغتة فقام أخوه مقامه كرئيس على المدارس . وكان امري قد اشتهر وغيرتي لا تنكر فاستقدموني لمساعدتهم فقمت بهمتي خير قيام اعظ صباح مساء . وأترأس تلاوة الصلوات وادرّس

توفي رئيس المدارس فيما بعد ولم تجد السيدة من يقوم مقامه سواي . وكنت قد بلغت السادسة والعشرين من سني . وشاهدت السيدة غيرتي وحميتي فوطدت العزم على ان ترسلني الى لندرا فاتمم دروسي واتزوج ابنة أخ لها يقوم مقام ابيه كرئيس اساقفة . وكتبت اليه بهذا الخصوص . وبما اني كنت ميالاً الى التجول والوقوف على اشياء جديدة ولم يكن لي في مصر علاقات نسبية تصدني عن اتمام هذا السفر قابلت ما عرض عليّ بجزيل الارتياح وأبحرت من الاسكندرية في اوائل حزيران

قابلني أخو تلك السيدة بالحفاوة اللائقة غير أني اتخذت لي مبيتاً في احد الفنادق وكنت اتردد الى داره المرة بعد الاخرى

واصرف ما لديَّ من وقت الفراغ في زيارة بعض الاماكن والابنية التاريخية في لندرة

وذهبت يوماً لزيارة المدرسة التي كنت مزمعاً ان اتمم دروسي فيها وسألت عن المدير فقيل لي انه متغيب ولدى سماعهم اني سأدخل المدرسة لأتعلم اللاهوت قال احدهم: من اية كنيسة انت ؟ أمن العليا ام السفلى ؟» وكنت اسمع لاول مرة بذكر هذه الكنائس اذ قيل لي اكثر من مرة اني من الكنيسة الانجيلية

فدهشت لهذا السؤال ولم استطع ان اجاوبه فقلت: «ما العليا وما السفلى ؟»

فدفع اليَّ كتاباً قائلاً اليك هذا الكتاب فهو يحتوي شرحاً وافياً يمكنك من الوقوف على ما ترغب ويجيب جواباً وافياً على سؤالك

فأخذت الكتاب وانصرفت الى الفندق اطالعه برغبة شديدة

ودعاني فيما بعد رئيس الاساقفة الى تناول الطعام على مائدته ولمَّا استقر بنا الجلوس الى المائدة لم يكن حاضراً سوى مضيفي وزوجته وانا. اما ابنته فكانت غائبة «فقلت» واين الانسة... فأني لا اراها هنا ألعلها متوعكة المزاج ؟» فقال الآب: لا. انها ذهبت برفقة احد الشبان. من جيرتنا الى كلاسكو هذا الصباح

— برفقة احد الشبان ؟...

— اي نعم. كان هذا ابن جارنا عازماً على الذهاب الى نزهة

فاحبَّت ان ترافقه الى تلك المدينة

فلم املك نفسي من الاشمئزاز من هذا العمل وقلت بنفسي: اين نحن باطباعنا وعاداتنا من عمل هذه الفتاة. آتي من محل يبعد آلافاً من الاميال لأرى هذه الفتاة واقترن بها وتعمل هذا العمل؟ ليس هذا بعشك فادرجي

ولحظت شيئاً آخر عند ذلك المطران استوقف ناظري وهو اني رأيت أختاً له رزينة تبدت عليها علامات الوقار تاكل معتزلة على مائدة خصوصية فاستفهمت ما شأنها فاجابت هي عن نفسها قائلة «اني من الكنيسة السفلى واخي واسرته من العليا ولذلك لا يؤاكلني ولا او اكله»

فازددت تعجباً وانذهالاً وسألت ما هذه الكنيسة وما تلك؟

ولما لم يكن الوقت وقت بحث وجدال اكلت كيفما استطعت وعدت حالاً الى الفندق التهم ما في الكتاب الذي دفعه اليَّ قيّم المدرسة وحصلت على كراس يتكلم عن الكنيسة العليا

ثم اشتريت عدداً عظيماً من الكراريس الدينية تضمنت اراء ومذاهب الشيع البرتستنتية العديدة المنتشرة في بلاد الانكليز واصبحت اذ ذاك كمسافر في زورق تضاربه الرياح من كل جهة ولا يدري اين يسير ولا كيف الوصول الى اليابسة او كريشة في مهب الريح سائرة لا تستقرّ على حال من القلق

وكان في لندرة سوريّ جنح الى البرتستنتية وتزوج وولد له

ابنة فشاء ان يزوجني بها فكان يتزلف الي وانا آبي لئلا اغضب ابا العروس الاولى فوقعت في حيص بيص

غير ان ما سمعته مؤخراً عن الكنيسة العليا والسفلى وبعض مذاهب اخرى دفعني الى زيارة ابن وطني يوماً ولم اكد اخاطبه في الشأن حتى قال لي «لو أفنيت عمرك كله في التفتيش عن جميع المذاهب الانجيلية لما سبرت غورها كما تحب. فعددها يبلغ الثلاثمائة ممن ينكر ضرورة العماد الى من يقول بالرتب الكنائسية والدرجة الاسقفية. لا بل لكل منا مذهب خاص به يستخلصه من الكتب المنزلة حسب معرفته وسعة مداركه فان كان صاحب نفوذ فصيح اللسان بليغ المنطق جذب اليه بعض اتباع له اضعف منه رأياً واخف بضاعة في امور الدين. وهلم جرًا»

وما كان كلامه هذا الا ليزيدني حيرة وارتباكاً. ولدى خروجي من عنده سمعت رجلاً يسير في الشوارع صائحاً: «اسبرجن اسبرجن اسبرجن» فعجبت منه وقلت لدليلي «ما شأن هذا الرجل ولماذا يصيح هكذا؟ ألعله معتوه؟» قال: «انه يعلن للجمهور ان الدكتور اسبرجن سيخطب في كنيسته بمحلة كذا عن ضرورة تأجيل العماد الى سن التمييز»

— ومتى يكون ذلك

— يوم السبت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر فهل ترغب في الحضور؟

فقلت في نفسي: ما عسى ان يكون هذا الخطيب وما يمكنه

ان يقول عن تأجيل العماد

وتولد فيّ الشوق لسماعه فاجبته قائلاً :

اجل اني انتظرك يوم السبت في الوقت المعين

وفي اليوم المذكور قادني دليلي الى كنيسة اسبرجن او بالحري الى ملعب او مسرح تحيط بـه من اربع جهاتـه مقاعد مدرجـة . وفي صـدره بركة ماء قام عليها شبه منبر على اربعة عواميد

ولم تكد الساعة الرابعة والنصف تدق حتى رأيت رجلاً ضخم الجثة عظيم المنكبين أغلب الرقبة كبير الراس متهدل الوجنتين صعد المنبر واخذ يخطب بصوت جهوري ولهجة فصيحة مبيناً وجوب تأخير المعمودية الى باوغ سن التمييز وما كاد ينتهي من خطابه حتى رأيت غلامين فتى وفتاة في الثانية او الثالثة عشرة من عمرهما قد خرجا من وراء المنبر كأنهما عريانان اذ ليس عليهما الا غلالة ونزل الواعظ من عن المنبر وغطس الولد والابنة في الماء وعمدهما وخرجا من الماء على تلك الصورة

فاشمأززت من عمله هذا وقبحتـه وقلت لدليـلي : أمن الممكن ان اقابل اسبرجن هذا فان لديّ كلاماً اقوله له

فقال دليلي : اجل ذلك ممكن عند انتهائه من خطابه

وبعد انصراف الجمهور استأذنا بالدخول على الخطيب وقال له دليلي اني أحب ان اسأله سؤالاً . فقلت :

خطبت يا دكتور واوضحت كل شيء وقد عنّ لي سؤال

اعتاص عليّ حله فهل تأذن لي بالقائه عليك ؟

فقال : تكلم

قلت : سلمت معك بوجوب تأخير العماد الى ما بعد البلوغ ولكن الاحداث الذين لم يبلغوا هذا السن وهم ابناء المسيحيين الى اين يذهبون بعد موتهم ؟

فاطرق اسبرجن هنيهة ثم قال : دون الجواب على هذا السؤال كلام طويل لا يحتمله هذا الوقت فأوجله الى فرصة أخرى

وعرفت من جوابه انه يوارب ويحاول التملص مما اوقعته فيه فقلت :

ما لك الا ان تجيب بكلمة واحدة فقط أ الى الهلاك ام الى الحياة ؟

— قلت ان هذه مسألة عويصة لا يمكني الجواب عليها حاضراً فالى فرصة أخرى . فقلت لدليلي : انه عاجز عن الجواب فهلمّ بنا

وعدت الى الفندق فأقبلت على مطالعة الكراريس التي لديّ كسابق عادتي

وحدث لي مرة اني سئمت من المطالعة فخرجت الى البستان اتنزه وحانت مني التفاتة الى الطريق فرأيت عربة فخمة يقودها اثنان من الجياد المطهمة قد وقفت امام الفندق ونزل منها سيد على وجهه سيماء الفتوة والعظمة ولم اعر وفوده الى ذلك النزل اقل اعتبار . ولما رجعت الى غرفتي دفع اليّ بطاقة كتب عليها « اللورد

بيوت يرجو من السيد .... ان يشرفه بزيارته . بل ان يقيم عنده ما شاء على الرحب والسعة » وفي ذيل البطاقة ذكر لي عنوانه كاملاً

و كان هذا اللورد بيوت من المثريين الانكليز وأشرافهم الشهيرين الذين يشار اليهم بالبنان . وحدث لي اني لما كنت في مصر تشرفت بمقابلته في نزل شبرد ولقنته بعض مبادىء اللغة العربية وبلغه اني في لندرة فجاء يدعوني الى الاقامة عنده . ولم يجدني الخادم في غرفتي فقال له اني متغيب . فلم يسعني الا تلبية دعوته فاخذت امتعتي ودفعت ما عليّ لصاحب الفندق وتوجهت قاصداً قصر اللورد بيوت

*

كان ذلك اللورد يسكن مع زوجته قصراً فخماً خارج مدينة لندرة اتصل اليه من بعض امراء الاسرة المالكة لاسباب لا يحضرني تعليلها . ولا حاجة الى القول ان اللورد استقبلني بمزيد الحفاوة والاكرام اللائقين باستاذه القديم ورحابة الصدر التي ينطوي عليها مثر شهير وكاثوليكي نبيل نظيره . ولقيت في قصره من رغد العيش والطمأنينة ما انساني سالف سكني في الفندق وخلا لي الجوّ للمطالعة فكنت انقب في تلك الكراريس الدينية محاولاً استيراء زند الحقيقة من تلك الاراء المتضاربة والافكار المتناقضة التي لم تكن مجمعة الا على شيء واحد وهو كراهة الكنيسة الرومانية والعذراء القديسة المكرمة

ولحظ مني مضيفي انصبابي على المطالعة وتكهن بفطنة لما انا فيه . فقال لي يوماً :

اراك شديد الحرص على هذه المطبوعات وتصرف آناء الليل واطراف النهار في تحفظها فدعك منها وصر مثلي كاثوليكياً تجد الامن والراحة والطمأنينة . فقلت له : ومن كم سنة انت كاثوليكي ؟

— منذ حداثتي وقد جعلت العناية الربانية في سبيلي احد الاباء اليسوعيين فرباني في مهد التقوى والورع

— وانا نشأت منذ حداثتي في المذهب البرتستنتي . وليس بوسعي ان اتركه قبل ان يحصحص الحق لعينيّ فاميز الغيّ من الرشاد

فتركني وشأني منذ ذاك الحين ولم يعد يتعرض لي في شيء البتة

وفي تلك الاثناء اضطر اللورد بيوت ان يترك قصره لاشتداد الحرّ وحرصاً على صحة قرينته فطلب الاماكن الباردة وودعته عازماً على السياحة والجولان في اسكوتلندة وارلندة

وشاءت العناية الالهية ان اصادف في بعض الاندية العمومية عدداً من الذين يدعون « جيش الخلاص , Salvation Army » فتقربت اليهم وخطبت فيهم وقلت لهم انا من الارض المقدسة فاخذوا يتبركون بي ويلمسون اهداب معطفي ويقبلونها وكانوا عازمين على اجراء سياحة في شمالي انكلترة واسكوتلندة وارلندة

فعرضوا عليّ ان ارافقهم فجاء اقتراحهم هذا طبق ما كنت قد عزمت عليه

فاجبتهم الى ذلك وسافرنا جميعنا في مركب خفيف على نهر يوم السبت وعند المساء استقر بنا المسير امام قرية حقيرة وقيل لي اننا سنقيم في تلك القرية الى غد الاثنين ونسافر منها الساعة السادسة صباحاً . ففضلت النزول الى القرية على البقاء في المركب وأخذت أسعى وراء الحصول على مأوى ولكن بغير جدوى اذ لم يكن في تلك القرية سوى فندق واحد احتله احد اشراف الانكليز اللورد ... مع حاشيته فاشغل كل الغرف

واخيراً قالت لي قيّمة الفندق لما رأت ارتباكي : ليس عندي الا حجرة واحدة على السطح تسكنها الخادمة فان شئت ان تبيت فيها تتركها الخادمة لك وتنام في المائدة

— قلت لا بأس فللضرورة احكام

فادخلت امتعتي وصعدت الى تلك الغرفة وكانت ضيقة جداً تبلغ بضعة اقدام طولاً وفي احدى زواياها سرير حقير الى جانبه خزانة صغيرة عليها شمعة وكانت الساعة الثامنة عند ما دخلتها . فما كدت اطأها حتى خلعت ثيابي وعمدت الى كراريسي الدينية فأقبلت أطالعها حسب عادتي المألوفة منذ دخلت لندرة وعرفت بوجود الكنيسة العليا والسفلى وسمعت وعظ اسبرجن وكلام القسيس السوري . فقرأت مدة ساعتين تقريباً حتى شعرت باستيلاء سلطان النعاس عليّ واحتجت الى حاجة اقضيها وكنت قد سهوت

عن استفهام الخادمة فخرجت مفتشاً عنها على السطح ولما لم اهتدِ اليه توجهت الى الدرج والشمعة بيدي لعلي اجد من يهديني الى ضالتي في الطبقة السفلى ولم اخطُ خطوة من على الدرجة الاولى حتى سقطت الى اسفل السلّم وبقيت عشر دقائق لا اقدر على التنفس ولا الحركة ثم عادت اليَّ قوتي شيئاً فشيئاً وبدأت اتنفس ثم جسست اعضائي وثبت لديّ اني لم أصب باذى سوى وجع ضعيف في ظهري مع اني سقطت من علو ثلاثة الى اربعة امتار وعندي انني لولا عناية ربانية لذقت الحمام او على الاقل لكسرت بعض اعضائي وفتشت عن الشمعة فوجدتها الى جنبي فقفلت صاعدًا الى غرفتي فأطفأت الضو وأويت الى فراشي نحو الساعة العاشرة

وكان سهري الطويل ووعثاء السفر وسقطتي من على الدرج قد انهكت قواي فاستسلمت لسلطان النعاس وأغفيت مدة وكأني استيقظت في ذلك الليل المدلهم فاذا انا بنور بهي قد ملأ غرفتي وكأني بخيال متشح بالبياض يخاطبني من ذلك النور قائلًا : لماذا انت هنا . قم . قم حالاً واذهب الى الدير المحاذي لهذا الفندق . هناك تجد ما يسرك

وكان مشهد هذا الشبح قد عقل لساني عن الكلام فلم اجسر ان افوه بكلمة . بل اني تقدمت نحوه قصد ان اعانقه او اقبل يديه غير انه اختفى بسرعة البرق وتركني في الظلام اناجي الاحلام والاوهام ونظرت الى الساعة فاذا هي الثانية بعد نصف الليل فلزمني الارق مدة يسيرة ثم اغفيت ثانية

ولم يكد النوم يزور جفني ثانية حتى سمعت صوتاً يناديني باسمي واذا انا بالشبح نفسه يحف به النور فاجبته قائلاً: ماذا تريد مني ؟ ما تأمرني به أفعله . فقال لي : لماذا انت هنا قم واذهب الى حيث قلت لك . الى الدير المحاذي فهناك يستقبلك الرئيس استقبالاً حسناً

قلت : كيف يكون ذلك تحت الظلام وانا غريب هنا لا اعرف احداً ولست واجداً من يهديني الى الدير في مثل هذه الساعة فعند الصباح افعل ما تشتهي . وعند هذه الكلمات اختفى الشبح عن مرآي واختفى بعده النور

وانتبهت فاذا الساعة الرابعة فلم أعد الى النوم رغماً عن احتياجي اليه

وعمدت الى كراريسي وكتبي فجعلتها في خريطتي وتركت الغرفة نحو الساعة السادسة وقلت لقيمة الفندق ان الغرفة التي بت فيها لا تناسبني فضلاً عن اني سقطت هذه الليلة من على السلم وكدت افقد الحياة فاجابتني : اني سمعت شيئاً سقط قرب الساعة العاشرة غير اني لم اكن لاظن ان ذلك اضر بصحتك واني آسفة جداً على ما حصل . لكني لا استطيع ان ارضيك فجميع ما في تزلي مأهول بحاشية اللورد

— الا يوجد في هذا الجوار دير او مدرسة يمكني ان أقيم فيها هذا النهار

— بلى . امامنا على بعد بضعة امتار مدرسة اكليريكية علها

تفي بالمطلوب

قالت هذا واشارت الى زنقة (طريق ضيقة) امام الباب فسرت فيها بضع خطوات فوصلت الى سدنة (باب صغير) فقرعتها

ودخلت فرأيت هنالك الرئيس يتلو فرضه فحييته باحترام فانقطع عن تلاوة الفرض واقبل نحوي بوجهه البشوش قائلًا :

— لماذا لم تأتني منذ امس؟

— لاني اجهل هذا المكان ولم يقدني احد اليه

— واين قضيت الليل

— في غرفة حقيرة على سطح هذا الفندق

— كنت اعلم ان لا محل فيه لان اللورد ... استأجره كله له ولاتباعه

ثم نادى بالخادم وقال له اصعد الخريطة الى غرفة عدد ١٤ واصلحها لاقامة زائرنا الجديد

ودق اذ ذاك الجرس فاراني باب الكنيسة ثم دخل اليها من باب آخر لاقامة الذبيحة . وحضرت ذلك اليوم القداس الالهي حسب الطقس اللاتيني لاول مرة من حياتي في تلك الكنيسة ولم اكن اعلم ان هذه الخطوة الاولى نحو السعادة الحقة والدين القويم . فكأنَّ يدًا خفية كانت تقودني الى حيث لا اشاء. انا الذي اتيت من بلاد بعيدة لاوطد عقائدي الدينية وابنيها على اساسات متينة في تلك البلاد التي نشأت وتأصلتْ فيها

وأراني ذلك الرئيس من حسن الاسلوب ولطيف المعاشرة ما

لا يفي بوصفه قلم . واعلمته اني من الذين قدموا على المركب نهار أمس قصد السياحة واني ساسافر نهار غد الساعة السادسة صباحاً في المركب الذي قدمت عليه

غير اني لاسباب لا يعلمها الا الله وخلافاً لعوائدي ورغماً عن رجائي الخادم ان ينبهني قبل الساعة المعينة لم افق من نومي نهار الاثنين الا الساعة السابعة صباحاً وكان المركب قد سافر وتعذّر عليّ السفر بحراً وبراً من تلك القرية اذ ليس فيها طريق للعربات او للقطارات ولا يمر بها الا مركب واحد نهار السبت ويسافر دائماً الاثنين صباحاً الساعة السادسة

وقال لي الرئيس : لا سبيل الا الانتظار وما يمنعك من الاقامة عندنا فاننا في ايام العطلة والمدرسة فسيحة ولا بأس في انتظارك المركب الاتي نهار السبت القادم

فاضطررت الى الانتظار

وكان في تلك المدرسة مكتبة حافلة بالكتب النفيسة على اختلاف انواعها وبما اني كنت ولم ازل مشغوفاً بمطالعة تلك الكراريس الدينية قلت في نفسي لا بأس في الانتظار فاني اصرف الوقت بالمطالعة ودرس الدين الكاثوليكي كغيره من الشيع الانجيلية التي اخذت بمطالعة كتب رعاتها ومقابلتها بعضها ببعض . فاقبلت على التنقيب في تلك الكراريس قتلاً للوقت وحباً باستجلاء الحقيقة

وكنت قد اعلمت الرئيس بطرف من اخباري فأدّى اليّ بعض

الكتب الجدلية فقبلتها بالشكر واخذت أطالعها بتحذر وكان بينها كتاب في التاريخ الكنسي فآثرته على غيره واستقللت بمطالعته فوجدت فيه لذة غير معهودة

ولم اكد اصل الى تاريخ الاصلاح حتى زاد شغفي بالمطالعة وما اشدّ ما كان دهشي عند ما علمت ان لوتيروس كان راهباً وما كان عليه من سوء السلوك وفساد الاخلاق وكيف انه أخذ يفتش في الكتاب المقدس عن آيات تبرر استرساله الى الغضب والبغض والدعارة التي كانت تساوره وظن انه وجد ضالته في تعليم القديس بولس عن التبرير بالايمان الذي فسره بهذا المعنى وقد حرفه تحريفاً فاحشاً « ان الانسان يتبرّر بالايمان فقط بدون اعمال الناموس » واتخذ اعلان الغفرانات نهزة لاشهار هذا الضلال الذي كان ينمّ به سلوكه السابق

وزاد عجبي ايضاً ما قرأته عن هنري الثامن ملك انكلترة الذي بعد ان ألف كتاباً يقاوم فيه لوتيروس ونال عليه من البابا لقب « مدافع عن الايمان » طلب من الحبر الاعظم ان يفسخ زواجه الشرعي بكاترين داراغون . ولما لم يجزله الحبر الاعظم هذا العمل المغاير لمبادىء الدين المسيحي الجوهرية طلّق امرأته هذه الشرعية وتزوج سفاحاً بجنة بولين ثم قتلها وتزوج باخرى فماتت ثم بغيرها تدعى حنة دكلف فطلقها واتخذ أخرى تدعى كاترين هوفار فقتلها بعد ستة اشهر . واخيراً اتخذ كاترين بارواوشكت هذه ان تقتل لانها اظهرت بعض الشك في معتقدات الملك وهكذا ارتكب هذا

الطاغي المنكرات وطوّح بمملكته في بيداء الانشقاق فتجاوزتها بسببه الى هياء الضلال والغواية معتنقة البدعة الجديدة

لم تكن هذه الحوادث التاريخية والفظاعات التي ارتكبها المصلحون باسم الدين والحرية الا لتزيدني اشمئزازاً من البدعة . غير ان التعاليم الاولية كانت تتقوى على هذا النفور . فاقول : وان يكن هؤلاء المصلحون لوتيروس وهنري الثامن وكالوين وغيرهم اردياء السيرة فاسدي الاخلاق فتعاليمهم حسنة

لكن صوتاً داخلياً كان يجيبني دائماً : « من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنى من الشوك عنب او من العوسج تين ؟ هكذا كل شجرة صالحة تثمر ثمراً جيداً والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئاً . لا تستطيع شجرة صالحة ان تثمر ثمراً رديئاً ولا شجرة فاسدة ان تثمر ثمراً جيداً . فمن ثمارهم تعرفونهم (متى ٧ : ١٦ — ٢٠)

وبقيت في المدرسة الى يوم السبت فجاء المركب على عادته عند المساء فاستعددت للسفر منذ ذلك اليوم خوفاً من ان يحدث لي كما في الاسبوع الماضي

غير ان العناية الالهية شاءت ان اصل الى الرصيف متأخراً رغماً عما بذلته من النشاط والسرعة في الحضور فحرت في امري وعدت الى تلك المدرسة اعض اصابعي ندماً متأسفاً على ما فات ولكن على غير جدوى

واضطررت الى المكوث الى الاسبوع القادم . ولم ترق لي كثيراً تلك المعاكسة وقد اثرت في طباعي بعض التأثير فغدوت مكفهر

الوجه . وعرف الرئيس ذلك مني فجاءني بدعته ولطفه المعهودين يعزيني بكلام ملؤه العطف والحنان مبيناً لي ان جميع ما يحدث لنا على هذه الارض لا يتم الا بامر الله تعالى او باذنه ان خيراً وان شراً وما لنا الا الرضوخ لاحكامه تعالى وان كان يعاكس امانينا وعلينا السعي بقدر طاقتنا عملاً بقول الشاعر :

وعليَّ ان أسعى وليـ ـسَ عليَّ ادراك النجاح

فبهت لكلامه هذا المسجدي وكنت اسمعه لاول مرة وحاك في قلبي وجعاني اعتبر ذلك الرئيس الذي ظهر لي آبان الشدة بمظهر كاهن الله الحقيقي كأب معزٍ ومعلم مرشد وطبيب وبعد ان عزاني بكلامه الرقيق خرج وشيعته الى رأس السلّم

وهناك سمعت صوتاً جلياً يقول لي : « قبل يده واعترف لديه بخطاياك »

فلم أصخ الى سماعه لكني سمعته ثنية وثالثة حتى انني لم أعد اشك فيه وانه الصوت نفسه الذي سمعته في الفندق يناديني ويحضني على ذلك العمل فلم يعد بامكاني ان اتلكأ فهجمت على الرئيس فأخذت يده اقبلها وطلبت اليه ان يسمع اعترافي

وكان ذلك اليوم يدعون عيد انتقال العذراء الى السماء . فلم أكد أطأ الكنيسة واجثو امام المذبح حتى تفجرت ينابيع الدموع منهمرة من عيني ويصعب عليَّ جداً ان أحلل ما كان يختلج في فؤادي من الشعائر في تلك الساعة

اعترفت ونلت الحلّة عن خطاياي فشعرت براحة نفس

وطمأنينة حقة ثم أخبرت الرئيس بخبري مفصلاً فقال لي : حقاً ان لله في خلقه شؤوناً وقد نلت من لدنه تعالى نعمة عظيمة جداً غير منتظرة فماذا فعلت لتنالها ؟

— لم افعل شيئاً استحق لاجله نعمة كهذه . لكن لي والدة متعبدة لمريم البتول عبادة حقيقية وهي تحبها وتحبني حباً شديداً . وكثيراً ما كنت اسمعها تناديها باعذب الاسماء وتقول لها : « لا تسمحي ابداً ايتها البتول الطاهرة ان افقد ولدي المحبوب بحق حبك لابنك يسوع نجي من الهلاك ولدي وردّيه الى حظيرة المسيح الحقيقية »

ولست اشك ان مريم العذراء شاءت ان تستجيب طلبات والدتي في يومين عيد انتقالها الى السماء في هذه البلاد الغريبة حيث اتيت لاتعلم كيف اقاوم الدين الكاثوليكي وازيد تمسكاً بجبال الضلال وانا في عنفوان الشباب اذ أرى الحياة باسمة لي والغنى والجاه يخفقان بها لكيلا يشك احد في المستقبل في ان ارتدادي الى الكثلكة موهبة مجانية من الله وان مريم البتول هي التي استمدت لي هذه الموهبة بصلوات امي ودعائها

قال الرئيس : هنيئاً لك يا اخي . حقاً انك لسعيد . لا تنسَ ان لامنا البتول فضلاً عظيماً عليك

وكأن اعترافي بزلاتي لدى الكاهن قد ازال عن عيني غياهب الشك والارتياب بالدين الكاثوليكي فاعتنقته موقناً بما تعلمه الكنيسة دون مراء ولا اعتراض

قال هذا وكان قد اخذ الاعياء منه مأخذه . فهمّ بالانصراف . فشكرته شكراً وافراً وقلت له : لي سؤال أخير القيه عليك وارجو منك ان تجيبني عليه بالاختصار :

ماذا حدث لوالدتك الفاضلة وهل عاشت طويلاً بعد ارتدادك الى الكثلكة ؟

— اعتراها مرض بعد سفري الى مصر ولما لم يسهل على ابي اعالتها في قريتنا نقلها الى . . . وهناك كان لها اخوة اعتنوا بها اعتناء حسناً . لكنها فارقت هذه الحياة الفانية وانا في لندرة وهي تدعو لي وتطلب من الله ومن العذراء القديسة ارتدادي »

قال هذا ونكف دمعة سالت من مقلته

فقلت : وهل لك اخوة واخوات ؟

— اجل لي اخوة واخوات من فضل الله لكنهم كلهم اعتنقوا البرتستنتية منذ حداثتهم ولا يزالون عليها حتى اليوم

— كيف كانت معاملتهم لك لما بلغهم ارتدادك ؟

— كما يسهل عليك تقدير ذلك . بالنفور والجفاء والسباب والتملق باذلين ما في وسعهم لكي يرجعوني عن غيي كما زعموا . ولما لم يفلحوا جرعوني من الاضطهاد امرّه وقاطعوني وتهددوني . غير اني قويت بمعونة الله وشفاعة امه البتول ودعاء والدتي على الانتصار عليهم كلهم ورغماً عما انا عليه من تزر المال وسعة ما لديهم من المال وما هم عليه من رغد العيش فانا افضّل الف مرة حياتي على حياتهم »

هذا ما اردت ان اودعه ايها القارئ الكريم بطون الاوراق حرصاً على الحقيقة وحباً باظهار ما لامنا العذراء من الآيات الباهرة نحو بنيها

النوط

النوط

تمتد مدينة ن ... على شاطىء البحر من الشمال الى الجنوب على مسافة ثلاثة اميال تكتنفها من الجهة الشرقية سهول فسيحة تزهو فيها اشجار البرتقال والمشمش واللوز وغيرها من الاشجار الطيبة الاثمار العطرة الرائحة . ولا يكاد البصر يبلغ منتهى تلك الرياض الغضة الغناء والجنائن الخضراء . واما من الجهة الغربية فلا يفصلها فاصل عن البحر وكثير من بيوتها بني على شرفات تتكسر على اسفلها الامواج

ومن هذه البنايات فنادق معدة لاستقبال المسافرين والمستحمين الغرباء القادمين الى هذه المدينة في اوائل فصل الصيف . واكثرها بني في الجهة الجنوبية من المدينة حيث توفرت المواضع الرملية وقلت الصخور فيلذ فيها الاستحمام ولا يعرض الداخل في الماء بنفسه للاخطار

وقد اعتاد السكان على الخروج للنزهة مساء على شاطىء البحر . فتراهم سائرين زرافاتٍ ووحداناً ويكثر عددهم عند الاصيل حينما ترسل الشمس اشعتها عند الغياب على سطح الماء والجو صافٍ فتتحد على خط الافق السماء بالماء فيخال الناظر ان هنالك حريقاً او اتوناً ولا أتون ثم ولا نار . وهذا احد المناظر التي تفردت به المدن الساحلية دون سواها

وان يكن هدير الامواج المتماثل باعثاً الى الضجر فلا يمله المتنزهون

فهو اشبه ببعض الاغاني او الاناشيد القديمة يترنم بها المغني على وتيرة واحدة فيألف الحضور سماعها ويستزيدون منهـا وهم لا تعروهم سورة الملل

وليس من المستغرب ان يبقى المتنزهون على الشاطىء الى مـا بعد المغرب بساعة او اكثر وخصوصاً متى اشتـدت وطأة الحرّ في شهري تمـوز وآب فيطلب كلٌ نسيماً بليـلاً ولا يجده الا عـلى الشاطىء

غير ان بعض الشبـان لم يكونوا ليكتفوا بالنزهـة قريباً من البحر — والشبيبة مولعة بطلاوة الجديد . وكل مشروع خطر تشرئب اليه أعناقها — فكانوا يركبون الزوارق ويبعدون في البحر منشدين الاهازيج ومرنمـين ولا يرجعون الا مـتى غربت الشمس . وليس رجوعهم حينئذٍ خالياً من الخطر لان الجزر يحدث غالباً منذ تلـك الساعـة فتنخفض الميـاه بجاذبية الشمس والقمر وتظهر الصخور وكثيراً ما يصحب ذلك او يتقدمه هيجان الامواج او هبوب ريح فيعسر على من في الزوارق الوصول الى اليابسة

وكثيراً ما كنت اذهب للنزهة مبتعداً عن جلبة الناس وطالباً الخلوة في صحبة احد الاصدقاء في الجهة الجنوبية في بقعة لا تصل اليها قدم المارين . وكان خير صديق لي الاب ط . خادم الرعيـة وهو شيخ جليل صرف معظم حياته متفانياً في خدمة رعيته لمجـد الله وخير النفوس

ففي احد ايام آب سنة ١٩٠٠ يممت منزل صديقي الكاهن

فوجدته يتلو فرضه . فجلست ريثما يتم تلاوة الفرض . وبينما انا كذلك اذ لمحت نوطاً من فضة متوسط الحجم . ورأني انظر الى النوط

فبعد ان اكمل صلاته قال لي : اراك تنظر الى هذا النوط كانك تحب الاطلاع على قصته

— نعم ان حسن في عينيك

— هلمَّ بنا الى محل نزهتنا المألوفة على شاطئ البحر وهناك اعلمك بالقصة في محل حدوثها

*

ولما بلغنا محل النزهة قال :

كان بطرس البحيري قد تخرّج في مدرسة كاثوليكية وتشرَّب حب الدين والفضائل منذ الصغر وهو منذ نشأته متوقد الفؤاد تقيّ . ولم يتم علومه حتى فجع بوالديه وهو وارثهما الوحيد فاصبح لديه غنى وافر ومال لا يحصى . ولكنما الكتاب يقول : « انه يعسر على الغنيّ دخول ملكوت السماوات (متى ١٩ : ٢٣) »

فنسي بطرس سريعاً ما تعلمه في المدرسة من مبادئ الآداب والدين وصرف حياته منهمكاً في اللذات ومنصباً على الملاهي واتلف ثروته بقليل من الزمن . ولما شعر بضياع ماله وانه لا يمكنه ان يتعاطى شغلاً ما صمم النية على الخروج من مشاق هذه الحياة من هذا الباب المفتوح امام البؤساء المنكودي الحظ اعني الانتحار

لكن الملذات لم تطمس تماماً على شعوره ولم تمحُ من نفسه كل عاطفة شاعرية . فاراد ان يمتاز بموته عمن سواه . فجاء يوماً قرب المساء

الى هذا المكان وتقدّم على الرمل الى ان قارب الماء وجلس هناك

واشار صديقي الى محل قد غمره الماء يبعد عنا ما يقارب عشرة أمتار ثم قال :

قد شاء ذلك التعس ان يحمله الموج ويقذف به في اليمّ فجلس منتظرًا مد البحر

صارت الساعة الثامنة مساء والبحر هادئ والامواج تأتي فتتكسر بهدوء قرب قدميه وهو يفكر في ايام حداثته السعيدة ويقول في نفسه : آه ما كان اهنأها لو لم يحدث ما لم يكن في الحسبان فيحول بيني وبين السعادة التي كانت مني على قاب قوسين

أخذت المياه تحيط به شيئاً فشيئاً . واذ ذاك عصفت الرياح ولمعت البروق فهاج البحر وبدأت الامواج تتلاطم وتتكسر عليه فتقطع عرى حلمه الهني . وحينئذٍ تجاذبته الاوهام والاحلام وشعر ان اجله قد حان فمتى جذبته المياه الى قعر البحر ثم لفظته ميتاً على الشاطئ فالى اين يذهب ؟ . . . أإلى العدم كما يزعم المعطلون ام الى الجحيم كما تعلّم في المدرسة منذ الصغر ؟ . . .

ولم تكن الامواج تجيبه الا بهديرها المزعج المحزن

وحانت من بطرس التفاتة فرأى فجأةً زورقاً تتقاذفه الامواج وتتلاعب به فتذهب به كل مذهب . وتمكن من ان يرى فيه على تألق البرق فتاة حديثة السن جاثية بالقرب من الصاري ترتل بصوت شجي انشودة للعذراء مريم وهي :

يا بتولُ انت ملجا لجميع البائسين

فاحفظيني واعصميني من ملمات الخطوب
اشفعي لي واذكريني عند فاديّ الحبيب
انت كالام الحنونة بك كلّ يستعين
فاظهري منك المعونة لبنيك الضارعين

فاقشعر بطرس لدى سماعه هذه الانشودة وطالما ترنم بها هو نفسه حين وجوده في المدرسة

وفيما هو يفكر بذلك انقضت موجة على الزورق فذهبت بتلك الابنة المسكينة. وصرخت هذه اذ ذاك صوتاً فاجيب نداؤها من الشاطئ. وكانت من بطرس التفاتة فرأى رجلاً يحاول ان يرمي بنفسه في الماء فيصده كاهن كان يرافقه. فلم يتردد بطرس ولا دقيقة فغاص في الماء وتمكن بدون مشقة من تخليص الابنة التي كانت الامواج تدفعها اليه. ولم يعتم ان عاد بحمله الثمين الى الشاطئ وسلّم الابنة الى ابيها. وبدون ان يضيع وقته في استماع عبارات الشكر والثناء او يفكر في تغيير ثيابه المبللة تقدم من الكاهن الذي كان حاضراً وقال له: ارجوك يا ابتِ ان تأتي عاجلاً فانني بحاجة قصوى اليك ولا يمكنني ان اصبر الى فرصة اخرى. ففهم الكاهن مراده وذهب الى فندق قريب كان بطرس نازلاً فيه وهناك جثا على ركبتيه وأقرّ بخطاياه فنال الحلّ منها ..

كل ذلك بفضل إنقاذه الابنة من الغرق

— ولكن لم تأتِ بعد يا أبتِ على ذكر النوط

— دعني استريح قليلاً فانك اصبحت عجولاً

وبعد بضع هنيهات استأنف الحديث قائلاً:

نجت نفس بطرس من الهلاك. لكن البرد الذي حصل له في تلك الليلة اضعف قواه وزعزع اركان صحته فاعترته نزلة صدرية وفي ظرف ثلاثة ايام قادته الى الرمس. وكان عنده الكاهن الذي عرّفه تلك الليلة. وقبل ان يلفظ نفسه الاخير سمعه الكاهن هامساً ومشيراً الى صدره وقائلاً: نوطي ... خذه ... لك ... ثم أسلم الروح

فكشف الكاهن عن صدر الميت فوجد نوطاً او ايقونة من فضة تلمع. ورأى ان قد نقش عليها من جهة صورة قلبي يسوع ومريم ومن اخرى هذه الكلمات « بطرس البحيري تناول القربان الاقدس لاول مرة في ٢٩ حزيران من سنة ١٨٨٠ »

قال صديقي ولهذا السبب تراني محافظاً على هذا النوط. لان ذلك الكاهن هو أنا

الفقير الرابع

الفقير الرابع

كانت الام تهدهد طفلها تارة وترنم أخرى بعض الحان قديمة مجهولة الاصل . وكان امامها وراء عتبة الباب مرج منخفض ضيق قد رعت الشياه عشبه حتى الاصول ونُثرت فيه بعض مجاسد واسمال بالية على حبل ممدود. ولم يكن ما بعد المرج الا الكثبان المتشابهة الشديدة الانحدار خاويةً قاحلة يُسمع فيها أحياناً لهبوب الريح المجفلة بين نباتات البرديّ المتلبدة دوي تقشعر له الابدان ويُجري فيها الخوف مجرى الكهرباء. وكان البحر وراء ذلك كله يُرى في النهارات الصافية الجو سكيبة نور ليس فيه سفن ولا تصلح مياه شاطئه القليلة ان تكون ملجأً صالحاً ابان الأنواء.

لم تكن تلك الضواحي لتأخذ بمجامع القلوب. انما جوليانة كانت تؤثر القيام فيها لانها مسقط رأسها. ولو لم يكن وراء تلك المزرعة بعض حقول أُحيطت بجدران فتغل الهرطمان وتقبل فيها خصوصاً البطاطا والقلقاس لما سهلت السكنى فيها . وهل تتطلب السعادة اكثر من ذلك؟

لم يجل هذا الفكر قط في ذهن ربة البيت او بالحري لم تلقِ على نفسها هذا السؤال . كانت تحب تلك المزرعة المنفردة التي تشبه في تكوينها مهمازاً بين رمال الشاطئ واولادها الاربعة وزوجها الذي اقترنت به فقيراً وهو لا يزال يجهد

كثيرًا ويتعب جدًا تارة في عزق الارض واخرى في جمع فضول البحر او بجرّ الشبكة مع ولده البكر . وهي مع ذلك شفيقة على البائسين ، أسعد خلق الله اذ لم يخالجها فكر قط ان تحسد أحدًا على سعادته

كانت السحب قد كسفت وجه السماء مساء ذلك اليوم فضيقت جدًا دائرة الافق ولم يعد يستطاع معه معرفة ساعات النهار . لكن الشمس قد اذنت بالمغيب والسماء قد بغشت فكان رذاذها يسقط من المدخن على غطاء القدر فيسمع له نشيش على الجمر

اما صاحب البيت فكان في الصيد مع ولده «هرقه» بينما كانت قرينته تهدهد طفلها وترنم ترنيمة لا نهاية لها تتكرر كل بيتين مع تغيير يسير

واذ ذاك سمعت حركة فتح باب الجنينة المحاذية للبيت فتنبه خاطرها فاصغت وسمعت وقع خطى شخص واحد يسير خارجاً فافتكرت قائلة: «من هذا يا ترى». وللوقت ظهر على الباب رجل يحمل صرّة ربطها الى طرف عصاه وكأنه شبح مظلم فطار لبها جزعاً لانها كانت وحدها . ولم ترَ سوى عينين زرقاوين براقتين تنظران اليها ولحية قد وخطها الشيب نصفها أبيض والنصف الاخر أمغر ونشرتها الريح ولبدها المطر فالصقها بصدغيه

— فقالت له وجلة : وماذا تطلب؟ ألاكل والمبيت هذه الليلة؟

فحنى الرجل رأسهُ مشيرًا ان نعم

وكأنها عرفته لان ابتعاد منزلها عن المدن والقرى جعلها ان تضيف غالباً أبناء السبيل والمتشردين فقالت له :

— إذهب الى « المكدس » واجلس على التبن المفروش فسوف يأتيك زوجي بالطعام بعد قليل . وكأني اسمع وقع خطاه فها هوذا قادم

غير انها لم تكن تسمع شيئاً سوى نبضات قلبها القائلة : تعال تعال وهدأ روعها نوعاً فافتكرت في الرضيع فأخذت تعيد ترنيمها السابق بعد ان ذهب المتسوّل

كانت ضئيلة الوجه رغماً عن فتوتها اما عيناها فسوداوان مختفيتان تحت عصابتها الشقراء يجري منهما الدمع بسهولة ويعتريها القلق بسرعة ولم يكن السرور ينبعث منهما الا نادراً وكوميض برق . وكانت الامومة الاولية كاملة فيها قد حفظتها الوحدة حفظاً تاماً

اذا شاءت جوليانة أمراً كان يندران لا يرضى به رجلها الاقل شعوراً والاقسى قلباً . وكأنه كان يشعر شعوراً مبهماً بهناءة ذلك الملجأ الذي يجده في مباءة ترتبها قرينته بدون انقطاع ولا مباهاة

اما هو فكان دائماً خارجاً يعيش في مهاب الرياح وعلى شواطئ البحر او فوق أمواجه فاذا عاد الى المنزل مساء يندر الّا يتهددها

وكانت اليد التي تهدهد المهد قد خفت حركتها فبطل تذبذبه شيئاً فشيئاً الى ان انقطع تماماً وحينئذٍ سمع حول ذلك المنزل انين

الريح مشتداً فاصبحت تلك الام امرأة ضعيفة وحيدة يتجاذبها عاملا اليقظة والجزع . ولكي تطرد مخاوفها نهضت فاخذت تهتم بشؤون المنزل فمضى نصف ساعة وهجم الليل واذ ذاك سمعت فجأةً صوت زوجها قائلاً :

— ها نحن . قد ألمنا الجوع ولم نتوفق في صيدنا

وكان في لبسه يشبه تارةً فلاحاً وطوراً بحرياً . وقد ارتدى سروالاً من المنسوج الازرق وعصب رأسه بعصابة من المشمع . إصفرّ والتفت من جهة الى أخرى في تلك الظلمة باحثاً عن الامّ التي جلست بقرب المحترق تزيل رغوة الحساء وتتبّله . ولما شاهدته حنت رأسها وابتسمت لولدها وقد كان وراءه ينظر اليها من فوق كتف ابيه فقال :

— سعدت مساء يا اماه

وقدم لها وجنته المبللة بالماء المالح فقبلته واوقدت الشمعة التي حفظتها الى تلك الساعة . فاضاء النور زنبيلاً صغيراً مسنداً الى الحائط وفيه ثلاث سمكات ذات حراشف قاسية ولون كلون الحمأة وسرطانان لونهما كلون السُّملان (بقية الخمر او الماء) قد ثنيا رجليهما فاشبها حصى الرخام

قال الرجل : هذا قوتنا نهار الغد . قد كان البحر هائجاً اليوم . لنأكل

ثم جلس الى المائدة . واذ قام الغلام ليقفل الباب دُفع الباب من الخارج وسُمع صوت قائل :

— هل ممكن الدخول ؟

وقال آخر :

— اين المبيت ؟

فأجابهما الرجل : على قارعة الطريق . خيّب الله كل ابن سبيل ومتطفل لا يعرف اصول الاداب . أين المبيت ! كأن بيتي اصبح فندقاً للمتشردين وابناء السبيل

قال هذا وانتصب واقفاً فرآه الاثنان طويل القامة عتيًّا وقد انصرم الشفق فغيرا لهجتهما وقال احدهما :

— لا إخالك تتركنا نبيت خارجاً تحت المطر وفي مهاب الرياح

— بلى . ايها الكسالى . اننا لا نشاهد سواهم على الطريق . كأن الشغل قد انقطع تماماً . بيد أننا نشتغل لنطعمهم ونعطيهم ما يشتهون . عليكما بحصى الشاطىء . فهي لكما من امهد الفرش ولا خوف عليكما من ان تزعجكما اسماك البحر

فقالت جوليانة : قد أضفتُ واحدًا في المكدس واظن انه يسع اثنين آخرين

فعاد الرجل الى مكانه غضباً وجلس يأكل دون ان ينبس ببنت شفة

واخذت الريح تزمجر فتضرب الحائط برداءَي المتشردَين فيسمع دويهما . فقالت المرأة :

— تحنن عليهما متصدقاً

— قد تكاثروا جدًّا وكل يوم يفتح لهم بابي فاعطيهم تبناً تعافه

الحيوانات فيما بعد . واطعمهم طعامي . فان ذلك يتكرر غالباً ولا طاقة لي على احتماله

وبنا انه كان يقول ذلك دون ان ينقطع عن الاكل او كأنه متأسف على تقصير صدر منه قالت جوليانة

— اذهبا والحائط . ففي منتهى الفناء بعد ان تتجاوزا الزريبة ادخلا المكدس ونشفا ملابسكما وبعد هنيهة تتعشيان

ولما خلا المنزل بصاحبه وامرأته وبكرها واولادها الثلاثة الاخرين النائمين في الغرفة المجاورة دار الحديث على فصل الصيد السيء وموسم الغلال التي لم تخصب

كان قد مضى شهران على اوان الحصاد ولم يفتأ الصياد وابنه يجولان ولكن عبثاً على الشاطئ . ان السمك الذهبي اصبح نادراً وكأن البوري وغيره من الاصناف المرغوبة قد هاجرت الى عرض البحر ولم تعد مصايدها تضبط الا الصغير من السراطين ولم تكن صغار الاسماك التي يصطادانها الا قليلة المنفعة فان تلك السميكات التي جمعت بين الوان قوس قزح لا ترضي الا نفوس الصيادين

وختم المزارع العركي (صياد السمك) قوله :

— ان دامت الحال على هذا المنوال قصرت عن دفع الاجار فيضطر الشريك ان يطردنا . ان قلبك لشفوق جداً على المتسولين والمتشردين فمنذ الغد فصاعداً اقفل في وجههم باب المكدس وان لم يكف ذلك لردعهم أطردهم قسراً مستعيناً بهرقه لأنه قد اشتد ساعده فاظهر الفتى معصميه فبان تحتهما العظم ناشزاً فنظرت المرأة

اليهما نظرة التوبيخ وتنهدت ولم تحر جواباً . ثم جعلت شيئاً من الخبز فيما بقي من الحساء في القدر وخرجت بالصحفة فسارت وبيدها اليسرى مصباح وبينما هي تسير وراء الحائط رأت في شعاع النور الذي يتقدمها ويشق الظلام شبحاً متحركاً

فتوقفت وكادت تصيح مستغيثة لكنها ظنت انه فقير يطلب الضيافة فرفعت المصباح لتتحقق ذلك فرأت شيخاً هرماً قد تثنت لحيته كاللوالب وعلى رأسه قبعة عتيقة المهد والشكل قد اكل الدهر عليها وشرب لكثرة استعمالها فتقدم الى النور وقال :

— حباً بالله ايتها السيدة جوليانة لا تتركيني ابيت خارجاً

فقالت جوليانة : انك تنطق بكلام لم يعهده غيرك من الفقراء اني آويك هذه الليلة لاخر مرة . لان زوجي سيقفل المكدس . ما اسمك ؟

— الشقاء

فتأملته طويلاً وتعجبت من لون عينيه الزرقاوين اللتين تنبعث منهما وداعة الاطفال ورغماً عن عصف الرياح وسقوط الامطار لم تشعر بضرورة العودة الى البيت كأنها في نور الشمس ايام الصيف الحارة فقالت له :

— لا اعلم ان كنت تبوح باسمك الحقيقي . فمن اين اقبلت ايها الشقاء ؟

— من كل مكان

— وهل يحسن الناس استقبالك

– أقلّ فأقل

– ولِمَ تسير دائماً الى حيث لا تعلم اين تبيت ؟

– لكي أصدّ قلوب البشر ان تقسو تماماً . فتى مررت أمرّ وحدي وبعد مروري تحلّ البركة

وتخيلت السيدة جوليانة ان هذا المسكين يشبه بعض الشبه الرسل الذين حفرت صورهم على ابواب كنيسة قريتها فقالت وهي تعلم يقيناً ان الظلام يستر بحجابه كثيراً من المارين على اختلاف طبقتهم الاجتماعية :

– هلمّ . دونك اجود مكان فهو من عن اليمين في اقصى المكدس . وان كنت لا تجد تبناً نظيفاً فخذ من الاكداس وقد اذنت لك

ولما جلس المتسولون الاربعة حول الصحفة للاكل ينيرهم مصباح ربة المنزل الذي علقته على الحائط سار الليل سيره وتضاعف تساقط الامطار وكأنّ المدّ قد مزج دويّهُ بدويّ الارياح التي يتخيّل السامع انها تنازل المسكن وتحاول تقويضه .

ومع ذلك عادت جوليانة الى البيت مسرورة بما فعلت وقائلة : هم اربعة الان فعددهم يوازي عددنا لنا من الاولاد

*

قام الاب والابن باكرًا ليعتنيا بالمواشي ويسبرا غور الهواء ان كان يأذن لهما بالصيد في البحر . ولم يكادا يجتازان العتبة حتى سمعا المرأة تصيح :

أغيثا ! ! الي ! يا لسوء الحال :

وباسرع من لمح البصر كانا في الغرفة الثانية وفيما هي تبكي وتنوح وجدا الخزانة مفتوحة ودرجاً مكسوراً سرق منه ما كان قد اقتصد في نفقة السنة المنصرمة . فاضطرمت في قلب الرجل نيران الغضب ونسب كل الخطأ الى امرأته التي بجدها واجتهادها كانت قد جعلت سكان تلك المزرعة سعداء فعنّفها تعنيفاً مرّاً ولامها فوق ما يطاق قائلاً :

— أليس ذلك كله بسببك ؟ فلماذا تضيفين اللصوص ؟ ها قد نفعتنا بشفقتك على البائسين وحنوّ قلبك حنان الحمقاء فانطلقي وراءهم الان . قد اشرفنا على الدمار وانتِ السبب الوحيد ايتها اللئيمة . وغير ذلك من الالفاظ التي تمليها الحافظة على اللسان ابان الغضب والغضب جنون

وامتقع لون الغلام وانـدهش لدى رؤيته امـه تبكي واباه غضبان . ولم يفتكر المزارع في البحث عن اللصوص الا بعد نصف ساعة . فسار في الفناء وتسلح بمذرى وجدهـا في الزريبة ودخـل المكدس وامرأته وولده يتبعانه فلم يجد على التبن الا الفقير الرابع نائماً فقال :

— انهض ايها الشقي اين الاخرون

فرأى الشقاء عينيه دون ان يبدي حركة ما . وكان مدثّراً بدثاره المتغيّر اللون ووجهه اشدّ صفرةً من التبن الذي ينام عليه . فاردف الرجل كلامه بقوله :

— كأنك تتجاهل ايها الشرير ؟ اين الاخرون ؟

لكن نظر ذلك المسكين كان صافياً بهذا المقدار حتى دهش المزارع وخيّل اليه انه يرى فيه معظم البحر من اعلى زورقه ومع ما كان من انقياده لتيار الغضب لم يجسر ان يمسّ ذلك الصعلوك وقال بلهجة أخفّ قسوة :

— لا اتهمك ولا اباديك بأذى . قل لي فقط اين اولئك الاشرار الذين سرقوا

— منذ نصف ساعة سمعت وقع خطاهم راكضين امام الباب ولكن لا نستطيع لشدة جريهم اللحاق بهم . ولم يفتأ في مكانه نائماً وهو يتكلم كأنه ذو سلطان فسأل المزارع قائلاً :

— وما عساهم ان يكونوا سرقوا منك ؟ أسعادتك ؟

— لا

— أأحد أبنائك ؟

— لا

— أضميرك المستقيم الذي بمقتضى أوامره عملت دائماً باجتهاد واتممت واجباتك ؟

— لا . وانما سرقوا مني خمسة عشر ديناراً كانت مذخرة في احدى الخزانات

— فقال الشقاء : لم تُضِع الا ما يمكن ان تعتاض عنهُ فلا تحزن ولا تبتئس . وماذا تهبني ان جعلتك تجد عوض ما فقدت ؟

— قال المزارع : لك الخيار

— اني اختار مفتاح مكدسك

فنظر المزارع الى درباز الحديد النافذ من القفل وقد علاه الخَبَث واكلهُ الصداء وقال مستخفاً رافعاً كتفيه : لكي تعود اليهِ ثانيةً ؟

— انا او غيري لانك ان اقفلت باب الشفقة في قلبك وباب مكدسك تخسر اكثر مما لو فتحتهما . تناول شبكتك الكبيرة واتبعني . قال الشقاء هذا الكلام ونهض واقفاً وكان المزارع طويل القامة لكنه وجد ضيفه يفوقه طولاً برأسهِ فسهلت عليهِ طاعته . فجعل الشبكة على محمل وذهب بها يساعده ولده وامرأته فوصل الاربعة جميعاً الى الشاطئ مجتازين التلال الرملية التي بلّل المطر نباتها . وكان البحر قد هدأ نوعاً لكن امواجه لم تزل تصدم الرمال فتعود منها مذيلة بتجمدات فضية وتقدموا ببطء سائرين على الشاطئ . اما الشقاء فلم ينطق بكلمة وانما كان ينظر الى انخفاض الامواج حيث كانت الامواه صافية ولما بلغوا وسط الجون اشار ان ألقوا الشبكة هنا . فدخل العَركيّ وولده في الماء فبسطا الشبكة مستديرة على مسافة مئتي ذراع وبينما هما يسحبانها بعناء فترقص الامواج فَلَينها صعد الشقاء على اكمة قريبة ووقف هنالك . وشرع العَركيّان يسحبان بصعوبة شديدة صيدهما كأن وراءهما ثقلاً عظيماً يصدهما عن التقدم . ولم تزل المياه هادئة وصافية كأن لا شيء فيها ومع ذلك أخذت تلك الدائرة العظيمة تضيق شيئاً فشيئاً فينفذ منها بعض اشعة ذهبية لم تكن سوى الوان الاسماك المختلفة

الاجناس فشعر العركيان بكثرة السمك فرجعا الى البحر واخذا باطراف الشبكة العليا والسفلى وشرعا يجذبانها باسرع ما امكنهما. ولم يلبثا ان صاحا بصوت الدهشة والفرح اذ لم يكن يرى في شبكتهما سوى كومة متحركة من السمك تضطرب وتضرب المياه باذنابها فتصطدم بالموانع وتختلط ببعضها بعضاً مرتعبة وتكتنفها ثنيات الشبكة فتكدس على الشاطئ. كانها صخر بيّضهُ الزَّبد

وقال العركيّ لامرأته وقد سكر بنشوة الفرح: هلمّي الى المنزل ياجوليانة واسرجي الحصان واحضري العجلة. ان صيدنا يملأ عجلة كاملة فما اسعد هذا النهار!

وعلق المزارع وولده يميلان الى اليمين والى اليسار يقبضان على الاسماك التي تحاول الفرار متبعة منحدر الشاطئ المبلّل بالماء.

ولما نهضا مسرورين ينفتشان عن الشقاء لم يريا احداً على التل ولم يكن هناك سوى قرنفل الرمل المتفتح

*

ومنذ ذاك الحين لم يزل مكدس المزارع العركيّ مفتوحاً ولم يرجع المفتاح الى محله او يستبدل بآخر. ولم يعد المزارع يستثقل المتسولين الذين تضيفهم زوجته وان كثر جداً عددهم خصوصاً في ايام الشتاء في ذلك المكان المنفرد. اما تلك المرأة فاذا سردت هذه القصة على مسامع بنيها او احفادها او غيرهم أضافت اليها دائماً ما يأتي:

يابنيّ: اضيفوا الفقراء ولا تخشوا كثرة عددهم. لان ليس لنا

نحن ان نختارهم فنميز خيرهم من شرهم ويحتمل ان يكون الاول شريرًا والثاني فالثالث وانما يكون الرابع غالباً الفقير الحقيقي المستحق كل شفقة

« رينه بازين »

حلم ملاك صغير

حلم ملاك صغير

كانت باريس في تلك الليلة مشعة بانوار الفرح والملذات العالمية قد نشر عليها الحظ غلالة من نسيج كالهباء وتجلت بمظاهر الابهة والجلال . ورغماً من مضيّ قسم وافر من الليل لم تخفّ حركة الاقدام في شوارعها الرحبة المنارة التي يتخيل المتجول فيها ان دامس الليل قد اضحى نهاراً

وفي تلك الساعة ادى المسير بأحد الاطفال القرويين الى باب منزل فخم من تلك التي تدعى في عرف اصحاب الفخفخة قصوراً وانطرح على اعلى درجة عند عتبة الرتاج وتدانى منهُ بقدر ما امكنه آملاً ان يطرد جيوش البرد التي تناوبته فيمضي ليله الى الصباح ذائقاً لذة النعاس وحاول بضع هنيهات ان يسترد من الحرارة ما فقدتهُ يداه الصغيرتان المثلجتان فاركاً احداهما بالاخرى غير انهُ لم يفلح وذهبت اتعابه ادراج الرياح

ومن وراء ذلك الباب حيث كان ينتفض من البرد انتفاض العصفور بللهُ المطر سمع انغام موسيقى شجية ولا موسيقى ملائكة الجنان برخامتها وعذوبتها . غير ان قلبه لم يكن يهتز اهتزاز الطرب لسماعها ولا يلمع في غرتهِ نور البشر لهذه الافراح . وكيف يقرّ ناظره وقد تساقطت نفسه غماً واسفاً ودوت اذناه برنات الاشجان وانتشر على عينيهِ ضباب الاحزان وهو يرى جمهوراً من

الناس يمرون على مقربة منهُ ذاهبين الى الملاهي والمراقص والولائم ويسمع من كان في سنه يدعون امهاتهم مبتسمين ابتسام اللطف فينقبض صدره ويلهف قلبه اكثر فاكثر

لم يؤبه لهُ ولم يعطف عليهِ احد وكل يسير عجلاً. لم يسقط في يد ذلك المسكين فلس واحد من اكياس اولئك القوم السعداء. ولم تخرج من افواههم كلمة تعزية تخفف لوعته ولا اظهروا لهُ قليلاً من الشفقة يؤسيه ولا شيئاً من المحبة يضمد جروحه المبرّحة

ان ذلك الطفل المسكين انتظر طويلاً على غير جدوى وبعد ان غيّض دموعه لم يعد يوسعهِ حبسها فأجهش وانهلت عيناهُ برقراقهما فتحدرت دموعه على خديه واستخرط في البكاء. وهو يقول:

« كان لي ام شديدة الاشفاق عليَّ لكن الله اختارها وجنى زهرة عمرها قبل ان ابلغ اشدي. كان لي اخت شقيقة روحي لكنها قبضت وهي الى جانبي وانا اقول لها ويداها الصغيرتان بين يدي: ثقي يا أختي ان امنا قالت لنا وهي على فراش الاحتضار: لا تجزعا يا ولدَي العزيزين ان الله الذي يعتني بصغار العصافير لا يتخلى عنكما. — وانا رأيت هذا الصباح عصفوراً ميتاً من الجوع والبرد لان الله تخلى عنهُ. وارى انهُ سيتوفاني عن قريب. وا أسفاه لماذا لم يجعلني الله هذا الولد الصغير الذي قد دخل منذ هنيهة هذا القصر مع والدته ؟ . . . »

ثم خفت صوته . . . ولما اشتد حلك الليل اسند راسه الصغير الاشقر الشعر على علبته الصغيرة التي كانت رفيقته وكنزه الوحيد

واستسلم الى سلطان النوم الخفي وقد انهكهُ التعب وبرح بهِ الجوع

وكانت الموسيقى تعزف في القصر كما سبق

وكان يخيل الى السامع ان تلك الموسيقى المطربة في الابتداء يتخللها نغم الحزن والشجو في الانتهاء . قد تغيرت عما كانت عليهِ سابقاً فلم تعد مرقصة بايقاعها ومشوقة بانغامها . وتحولت الى نغمات معجلة موئسة ومحزنة شجيَّة كموسيقى الجنازة

غير ان هذا كان مما تخيل للقروي الصغير في نومهِ . . .

وكان بين الراقصين سيدة شريفة سعيدة تستلفت برشاقة قدها الابصار وتستفز بجمالها الفتان اعجاب كل من حضر والى جانبها ولد صغير يترقرق من محياه ماء اللطف والجمال ولم يكد يراه القروي المسكين حتى صرخ بسذاجة : ما اسعد هذا الطفل : يا ليتني كنت اياه . . .

وكان كل من ضمه ذلك النادي يأتي ويؤدي فروض الاحترام لتلك السيدة قائلاً : ما اسعدك يا سيدتي فنعم عوفك ان ابنك سوف يكون . . .

ولم يتم كلامه حتى خرج فجأة من بين الجمهور شبحٌ ابيض فتقدم الى الطفل ولمس جبهتهُ بثلاث من اصابعه ورفعها تاركاً محلها وسماً مزرقاً واتم الكلام قائلاً : . . . « بعد بضع سنين فريسة البغض والازدراء اللذان ركمهما على رأسه وعلى مستقبله اقرباؤه اورومته الشريفة »

فداخل الخوف القروي المسكين

وعادت الموسيقى الى انغامها المحزنة الشجية وتُجل في الرقص وجادت الآلات المطربة بانغام جديدة فاستؤنف الرقص . واذ ذاك سمع فجأة صراخ ذُعر لهُ الحضور . فانكفأت الآلات عن العزف وكان الصبيُّ الفقير اشار الى طفل كانت امهُ في تلك الساعة قد احتضنتهُ بحبٍّ وهي تقول لهُ : « يا ملاكي وكنزي الثمين . من اعلق عليهِ آمالي وأُنيط بهِ سعادتي . بعد بضع سنين يا حبيبي . . . »

وقبل ان تتم كلامها كان الشبح الابيض قد لوث اصبعهُ بالدم ونضح بهِ جبهة الطفل فترك عليها وسماً محمراً وهو يقول للام :

« سيكون ميتاً بالمبارزة او مقتولاً اغتيالاً قبل بلوغه سن الثلاثين لاسترساله وراء شهواته او لوقوعه بين ايدي اللصوص وقطعة الطرق »

فشهقت الام صارخةً فوقع الطفل صريعاً على قدميها ولم يؤبه لها

وعادت الموسيقى الى العزف وشرع الراقصون في الذهاب والاياب على عادتهم في دورات مسكرة حتى اذا بلغت معظمها صدَر من جميع الآلات نغمة شاذة مخالفة للايقاع دفعة واحدة كما لو كانت تحطم جميعها معاً . وهذه الفترة اليسيرة كانت كافية لان يخط الشيخ على جبهة صغير آخر قد عينهُ القروي الصغير هذه الكلمات :

« آلام نفسانية وجسدية وخصوصاً قلبية . سيخونه اخصاؤه وينفى ويسجن فهو يتألم كثيراً من ابناء جنسهِ »

فاقشعر جسم القروي الصغير لانه فهم ما كتب وحوّل وجهه

عنه كيلا يراه واستؤنف الرقص

وامل ان يجد في طبقة وسطى من الناس نصيباً افضل من نصيبه وعيّن صبياً آخر اقل اعتناء في هندامه ممن تقدم ذكرهم فتقدم منه الشبح ايضاً ولمس جبهته كالاخرين قائلاً :

« اعجاب بالنفس واختيال وغطرسة مشفوعة بالبؤس والشقاء . يكون اولاده العاملين على شقائه ويموت في المستشفى بعد افلاسه »

ولم يكتفِ القروي الصغير بما شاهد فرغب ان يجرب تجربة اخرى واشار الى من رآه بين اولئك الاقوام من الصغار اقل سناء وارثّ هيئة قائلاً : وهذا .

واذ ذاك سمع ضجيج شديد في تلك الردهة شبيه بارتجاف امة في بعض الشوارع فاتجهت ابصار الحضور الى العلى واذا بهم كأن في الفلك قد نصبت خشبة المذلة والعار . وظهر الشبح مفتشاً حواليه ثم انحنى ورسم هذه الكلمة على جبين الولد المشار اليه :

« مرذول »

وسقط رأس ذلك الحدث الشقي بجد المقصلة وحمل جسده الى حيث تعرض الجثث ليعرفها ذووها

وغض الجميع الطرف عن ذلك المشهد المؤلم وصرفوه الى جهة أخرى

وحينئذٍ خيل اليهم رؤية يمّ هائج ترتفع امواجه المزبدة الحنقة الى عنان السماء وعليها مركب سيء البخت يكاد يغرق وفي ذلك المركب رجل استولى عليه اليأس واسترسل الى عوامل القنوط

وقد كلف نفسه امرًا ادًّا اذ شاء ان ينجي امرأته وبنيه من تلك التهلكة وعبثاً كان يحاول ذلك فلم يفلح وافلتوا جميعهم من يديه ورسوا في قعر البحر فلم يبقَ له من احد

وكانت امواج البحر تصدمه الى جانبي المركب اخيرًا انقضت الصواعق على صواري المركب فحطمتها واسقطتها عليه فجرحته جروحاً بليغة وكان على جبينه هذه الكلمة « انسان » وعلى مركبه « الحياة »

وبعد هنيهة رؤيَ ذلك المسكين التعس رافعاً ذراعيه الى السماء اما مصلياً واما قانطاً . ثم ابتلعته المياه واختفى مرآه عن العيون . وتنوسي امره

واذ ذاك عاد الراقصون الى رقصهم وقد نشرت على اوجههم غلالة من الحزن والخوف

والقى حينئذٍ صبي بنفسه بينهم وعليه ثياب رثة واسمال بالية فنظر اليه كل بعين الازدراء والدهشة وتهيأوا لطرده من ذلك المكان

وعرف القروي الفقير نفسه بشخص ذلك الصبي فقال :

« أجل اني افضِّل ان اكون هذا الصبي فهو خيرٌ لي »

وتقدم الشيخ وخط على جبهة ذلك الفقير المسكين هاتين الكلمتين : « مختار الله »

فتبسم القروي الصغير لذلك تبسمة الملائكة . . .

— انتهى الرقص واحتشد القوم للخروج من ذلك المكان

وقد اسرعوا فداسوا ذلك المسكين الصغير وتركوه جثة هامدة في ردهة الرقص

فبقي الشبح وحده مع الطفل وتقدم اليه . وفيما هو منحنٍ ليقيمه بانت جبهته التي كانت محجوبة منذ الابتداء فقرىء عليها هذه الكلمات : «عدل الله غير مفهوم لكنه العدل»

ثم توارى عن النظر حاملًا الطفل

وانتهى حينئذٍ الحلم

غير ان تلك الرؤيا كانت قد ازعجت ذلك القروي الصغير وارعبته تلك المناظر فتحرك حركة خفيفة وهو نائم فسقط عن الرصيف

وفي تلك اللحظة اقبلت مسرعة عجلة فخمة يجرها اثنان من الجياد المطهمة فعثرت عثرة رجت لها رجةً . فسرى منها رعش يعجز القلم عن وصفه كما تسري الكهرباء في الجسم . ثم توارت العجلة في منعطف الطريق ولم يعد يسمع لها صوت

ورفعت جثة القروي الهامدة غير ان نفسه في تلك الساعة كانت قد بارحت الجسم طائرة الى الاخدار السماوية حيث نالت الوسم المقدس الذي خطه على جبينها الشبح وكان كالعصفور الصغير الميت الذي وجده فلم يرَ صباح اليوم المقبل ولم يعش طويلًا كان رؤيا الحياة في الحلم قد كفته

والموت في كثير من الاحوال لا يُنتظَر ولا يَنتظِر

تصحيح بعض اغلاط

الوجه	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	١٢	النخيل	النجيل
١٩	١٧	فيجلونا	فيجلون
٣٠	٧	شاكيي	شاكي
٣١	٩	مشاهدة	مشاهدهِ
٣٥	١٧	تقدم الناظر من	تقدم الناظر الى
٣٧	١٦	تلهت	تلهث
٩٠	١١	اعشاء	عشاء
٩٤	٩	الاسبانيين	الاسبانيون
١٠٢	٥	وصول سناها على	وصول سناها الى
١١٩	٦	بنا	فيما
١٢١	٧	لمعرفة	الى معرفة

[redacted]
باقة روايات
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01029081